روايات مصرية للجيب

33

فانتازيا

أيام مع هانيبال

Looloo



د. أحمد خالد توفيق

مقدمة

اسمها (عبير عبد الرحمن)

إنها لا تملك شيئًا من رقة اسمها ، ورشاقة اسمها ..

إن (عبير) ليست جميلة بأىّ مقياس ، ولا تجيد القتال أو قيادة السيارات ، وليست عالمة أو أديبة ممثلة ، ولا تملك مؤهلاً دراسيًا محترمًا ..

إن (عبير) هى إنسانة عادية إلى درجة غير مسبوقة .. إلى درجة تجعلها فريدة من نوعها .. وتجعلها جديرة بأن تكون بطلة السلسلة ..

لقد قابلت (عبير) (شريف) .. خبير الكمبيوتر الثرى الوسيم ـ والأهم من هذا ـ العبقرى .. وكان (شريف) وقتها يبحث عن فتاة عادية جدًا ولا تملك أىّ ذكاء .. هذه الفتاة ستخضع لاختبار جهاز (صانع الأحلام) الذى ابتكره ، وهو جهاز قادر على استرجاع ثقافة المرء ، وإعادة برمجتها فى صورة مغامرات متكاملة ..

ولأن (عبير) تقرأ كثيرًا جدًا .. ولأن عقلها مزدحم

بأبطال القصص ومواقف القصص ؛ صار عقلها خامة صالحة لخلق مئات القصص المثيرة ..

(عبير) سترى القصص التى عشقتها .. ولكن مع تحوير بسيط : إنها ستكون جزءًا متفاعلاً فى كل قصة ! ستطير مع (سوبر مان) وتتسلق الأشجار مع (طرزان) .. وتغوص فى أعماق المحيط مع كابتن (نيمو) ..

وتزوج (شريف) (عبير) .. ربما لأنه أحبها حقًا .. وربما لأنه كان بحاجة إلى إبقاء فأر تجاربه معه للأبد .. ونعرف أن (عبير) حامل ..

وتواصل (عبير) رحلاتها الشائقة إلى (فانتازيا) .. ترى الكثير وتعرف الكثير .. وفى كل مرة ينتظرها (المرشد) ليقودها إلى حكاية جديدة ..

إن (عبير) تنتمى إلى (فانتازيا) .. أرض الخيال التى صنعها الكمبيوتر لها من خبراتها ومعلوماتها الخاصة .. وأعاد تقديمها لها من جديد ..

(فانتازيا) هى المهرب من براثن الواقع .. وكل الوجوه التى لا تتغيّر ..

(فانتازيا) هى الحلم الذى صاغته عبقرية الأدباء

على مرّ السنين .. ولم يكن من حقنا أن نكون جزءًا منه .. لكن هذا فى مقدورنا الآن ..

لسوف نرحل جمعيًا مع (عبير) إلى (فانتازيا) .. نضع حاجياتنا وهمومنا فى القطار الذاهب إلى هناك ..

هو ذا جرس المحطة يدق .. وهدير المحركات يدوى .. إذن فلنسرع !

★ ★ ★

« فليُصبْ جام الرعب والمخاوف على مدينة (قرطاجة) هذه .. إننا نلعن هؤلاء القوم وجيشهم بكل ما فى كياننا من قوة .. نلعن كل من شغل هذه القصور وعمل فى هذه الحقول ، وعاش على هذه الأرض .. نتضرع ألا يروا النور ثانية .. فليحل الصمت الأبدى والوحشة الكئيبة هنا فلا يبرحان . ملعون من يعود ، ومن يحاول تعمير هذه الخرائب أو بعث الحياة فيها .. »

القائد الرومانى (سيبيو الأميلى) على أطلال قرطاجة المحترقة ..

1ـ رحلة جديدة ..

سافر (شريف) إلى أوروبا ..

عرفت (عبير) هذا من أصدقائه ..

تزوج ؟ لا لم يتزوج .. ما زالت الآنسة (رانية) هنالك فى الشركة تبتسم برقة وتوقع المتزوجين فى شراكها ..

* * *

لكن ماذا حدث بالضبط ؟

هل هى رحلة عابرة يعود بعدها أم هى هجرة ؟

هل تنتظره (رانية) هذه أم أن « كل شىء قد انتهى بيننا » ؟ من الممتع للخيال أن تتصور أنه وجد أن (رانيا) هذه لا تستحق ، وأنها براقة المظهر صدئة الأعماق ، وأن من فات قدميه تاه .. عندها

سيعض على أنامله ويقرع سنه .. ولسوف يفكر فى (عبير) من جديد .. وهى ستسامحه .. نعم .. ستفعل .. لكن بعد تمنع كثير وتفكير طويل ..

من الممتع أن تتصور أن هناك عدالة شعرية ما ، وأن تحلم بهذا .. لكنه للأسف لا يتجاوز حتى اللحظة أحلام يقظة ...

كادت تجن وهى تجهد عقلها بحثًا عن إجابات هذه الأسئلة ، وما كانت لتجد الشجاعة كى تذهب إلى بيتها لتسأل البواب ، أو تسأل (رانية) نفسها .. يجب أن تكون هناك إدارة خاصة للرد على الأسئلة من هذا النوع .. تذهب هناك وتدفع الرسوم المطلوبة ثم توجه سؤالك : هل فلانة تحبنى ؟ هل هناك من يتآمر ضدى فى العمل ؟ الخ .. تنتظر بعدها نصف ساعة ثم يأتيك الخبر اليقين ..

أما أكثر ما أثار غيظها فهو أنها ليست من هذا الطراز القوى الذى يعرف كيف يتجاهل الأمر .. الذى يقول : « سأنسى » ثم ينسى بالفعل ..

هى لم تكف عن التفكير لحظة .. هى لم تكف عن التوتر لحظة ..

مشروعات جنونية جابت عقلها ، تبدأ بالتوسل وهى جاثية على ركبتيها ، وتنتهى بالتذويب فى حمض الكبريتيك المركز .. مشروعات من الطراز الذى لا تدرك أنه سخيف إلا حين تصحو من النوم صباحًا ..

وهكذا وجدت ـ كالعادة ـ أن النشاط الذى تجيده وتقدر عليه ولن يخذلها أبدًا هو :

أن تجلس فى غرفتها .. وأن تشغل الحاسب الآلى ..

إن بضع دقائق فى (فانتازيا) لن تؤذى أحدًا ، لكنها بحاجة بالفعل إلى الفرار من حصار المشاكل اليومية .. من كآبة الواقع ورتابته .. جميل أن تفر من مشاكل الحارة لتواجه مشاكل المجرة مع (سوبرمان) .. جميل أن تهرب من هذه الغرفة لتجد نفسك فى قصر إنجليزى عتيد وتساعد (بوارو) فى تحقيق جريمة

قتل .. رائع أن تتناسى مشاكلك العاطفية لتجد أن أبطال الإلياذة كلهم ـ الإغريق والطرواديين ـ يهيمون بك حبًا ..

الطريف فى الموضوع هو أن أخاها وأمها وأختها . الجميع فى الدار لا يعلمون شيئًا عن (دى جى) و(فانتازيا) والنشاط الغريب الذى تمارسه (عبير) حين ينام الجميع وتبقى وحدها ساهرة ..

وحتى لو تسلل أحد إلى غرفتها فلن يفهم شيئًا .. سيجدها جالسة إلى المنضدة الصغيرة أمام الحاسب الآلى .. مغمضة العينين كأنما هى نائمة ، وقد ثبتت الأقطاب حول رأسها ..

منظر مرعب ربما .. لكنه قابل للتفسير لمن يسأل أسئلة فضولية ..

وهكذا تأكدت من أن الجميع نام وأن الهدوء عم المكان . الطفلة قرقرت قليلاً فى الفراش ، وراحت تكلم نفسها ثم غابت فى نوم جميل عميق ..

تـأكدت (عبير) من أن المـلاءة تغطى الصغـيرة ، وأن الإيشارب على وجهها يحميها من البعوض وهو كثير بحق هنا ، ثم جلست إلى المقعد وأحكمت وضع الأقطاب .. ذلك النشاط الذى كانت تمارسه بنجاح منذ دهر حتى إنها لم تعد تخلط الألوان ولا تحتاج إلى النظر فى المرآة ..

وبدأت الرحلة ......

★ ★ ★

وكانت واقفة جوار قطار (فانتازيـا) .. المشهد المعتاد فى كل مرة ، والمرشد ثقيل الظل يقف وقد قاطع ساقيه كأنه يقف على شفرتى مقص ، وهو يضغط بلا توقف على قلمه .. تلك العلامة المميزة أو اللازمة التى لاتفارقه ..

قال لها :

ـ « إلى أين هذه المرة يا (أليس) ؟ إن أحلامك أوامر كما تعرفين .. »

ثم فكر وهو يراجع دليل (فانتازيا) الذى فى يده :

ـ « الحقيقة أن عوالم كثيرة قد انضمت إلى (فانتازيا) فى الفترة الأخيرة .. إن نمو (فانتازيا) السرطانى لا يتوقف أبدًا .. هناك عالم (هارى بوتر) وعالم (الرجل العنكبوت) .. الخ .. »

ـ « هل عملك صار مقتصرًا على الأفلام ؟ أين ثقافتك ؟ »

ـ « أولاً السينما منبع ثقافى مهم فى عصرنا هذا ويجب ألا تتعاملى معه باستخفاف .. ثانيًا : (هارى بوتر) كتاب تحول إلى فيلم ، ولو كنت لم تقرئى الكتاب فليس الذنب ذنبى .. أما (الرجل العنكبوت) فقصص مصورة قديمة جدًا .. فقط تمت إعادة اكتشافها كما حدث مع الرجل الوطواط .. »

ثم أضاف وهو يقلب صفحات الدليل :

ـ « عوالم خاصة ؟ لِمَ لا ؟ هل تزورين اليوم عالم (تشيكوف) أو (ديكنز) ؟ »

أصدرت صوت (م م م م م م) قد يعنى عدم الرضا وقد يعنى التفكير وقد يعنى طلب المزيد من الاقتراحات ..

- « ليكن . ماذا عن الألعاب التاريخية ؟ يمكن أن تجربى دخول (بونابرت) إلى الإسكندرية .. أو تختنقى بالغازات السامة فى الحرب العالمية الأولى . ماذا عن فتح القسطنطينية أو الدفاع عن الأندلس ؟ »

كررت الـ (م م م م م) .. فعاد يقول :

- « (هانيبال) .. الهجوم على روما .. »

هنا قالت فى دهشة :

- « (هانيبال) ؟ أليس هذا هو آكل لحوم البشر فى فيلم (صمت الحملان) ؟ شاهدته مع (شريف) على شريط فيديو ذات ليلة .. حين كان (شريف) مازال (شريف) .. »

ابتسم فى سخرية وقال :

- « سطحية كالعادة .. مشكلة هذه الأعمال الناجحة

أنها تغرس معلومات غير قابلة للتصحيح فى الأذهان .. لهذا يعتقد أكثر الصبية أن (مايكل أنجلو) و(ليوناردو) كانا سلحفاتى (ننجا) .. أما (هانيبال) الفاتح القرطاجى العظيم .. عدو (روما) الأوحد .. فقد نسيه الناس تمامًا .. تحول إلى آكل لحوم بشر مجنون يطهو مخ ضحاياه وهم أحياء .. »

- « وأى (هانيبال) تنوى أن أراه اليوم ؟ »

- « الأول .. الأصلى .. ربما تقابلين الثانى يومًا ما .. لكن ليس اليوم .. ولسوف تقابلينه كما هو فى قصة (توماس هاريس) الشهيرة وليس كما فى الفيلم .. »

فكرت قليلاً ..

لم تكن تعرف الكثير عن (هانيبال) .. لكن معنى أنه متاح لها هو أنها تعرف الكثير عنه فعلاً .. فقط هى لا تعرف أنها تعرف ..

لقد قرأت كثيرًا جدًا .. طيلة حياتها كانت تقرأ ..

لكنها كانت تعتبر نفسها مؤسسة (حزب المواسير) العظيم، حيث لا شيء يبقى .. كل ما يدخل عقلها يغادره فى اللحظة ذاتها .. ولم تعتقد قط أنها تفيد من قراءاتها إلا التسلية، ولم تحسب شيئًا يبقى ..

ها هى ذى (فانتازيا) تبرهن لها على العكس .. لا شيء يفقد أو يضيع .. هناك رواسب لكل شيء ..

قالت للمرشد وهى تتثاءب :

ـ « ليكن .. اليوم (هانيبال) .. أرجو أن تكون مغامرة مثيرة .. »

نظر لها نظرته الغريبة المزعجة وقال :

ـ « أنت غريبة الأطوار يا فتاة .. أضعك فى مغامرة كاملة مع قاهر (روما) الذى كانت حياته سلسلة لا تنتهى من المغامرات والحروب .. وبرغم هذا تشترطين أن تكون المغامرة شائقة !! حقًا أنت عسيرة الإرضاء .. لكن دعينى أؤكد لك أنه لو كنت

تتوقعين السعادة الأبدية والإثارة المطلقة وربما رغيفًا محشوًا بالكباب كذلك، فقد اخترت المكان الخطأ .. لا أستطيع إرضاء كل خاطرة غريبة لديك .. »

ـ « الزبون دائمًا على حق، وأنا زبون .. لا تنس هذا .. »

قال فى خبث :

ـ « إذن جربى (هانيبال) .. ولن تندمى .. »

ـ « (هانيبال) .. (هانيبال) .. لن يكون هذا آخر اختيار غير موفق فى حياتى .. »

* * *

2ـ إيبيــريا ..

(روما) أعلنت الحرب على (هانيبال) !!

(روما) أعلنت الحرب على (هانيبال) !!

كان هذا هو الخبر الذى تهامس به الناس فى الأسواق والجند فى مجالسهم .. وراح الأطفال يركضون فى الشوارع صائحين به ، لا يخشون لوم لائم .. وهذه هى مزية الأطفال الكبرى ..

وكانت (عبير) جالسة فى الخيمة وسط النساء حين سمعت الخبر ..

فى الحقيقة كانت ما زالت فى طور انعدام الوزن الذى تعرفه فى بداية كل مغامرة ، فهى لاتعرف من هى ولا ماذا تعمل هنا ..

لكنها كانت تعرف على الأقل أنها جميلة جدًا ـ كما

هى العادة المملة ـ وأن ثيابها فاخرة ، وأنها لاتتكلم لغة النساء المحيطات بها .. إنها تتكلم لغة شبيهة باللاتينية .. ومن الغريب أنها تفهم أكثر ما يقلن ..

لم يكن لها عمل ما .. فهى مضطجعة طول اليوم فى خيمتها أو تتوكأ على الأرائك ، على حين تغنى بها جاريتان إفريقيتان .. أحيانًا تأتى فتاة حسناء سمراء فتعزف لها على آلة تشبه القيثار بعض الألحان .. الطعام يأتى فى وفرة ومعه الشراب .. لكن لا شىء غير هذا . ولا يوجد تدفق معلومات من أى نوع ..

فقط أدركت (عبير) أنها تعيش فى فترة عتيقة جدًا من التاريخ .. لا شك أنها قبل التاريخ بقرون ..

لو كانت تذكر حقًا لعرفت أن هذا هو العام 218 قبل الميلاد .. وهى فى شبه جزيرة (إيبريا) .. فى إسبانيا بالذات ..

لكن من هى ؟ ومع من تعمل ؟ وأين (هانيبال) من كل هذا ؟

لا أحد يعرف .. وللحظات خشيت أن يكون هناك خطأ ما .. الأخطاء تحدث فى كل مكان ، ولا يوجد ما يمنع أن ترتكب إدارة (فانتازيا) خطأ ما .. معنى هذا أن تقضى القصة فى أكل العنب والكرز .. بل ربما ينسى المرشد وجودها أصلاً ..

لقد اعتادت أن تبدأ كل قصة من ذروتها .. لكن الوضع اليوم يختلف بعض الشىء ..

إلى أن جاء اليوم الذى جاءها فيه الحارسان ..

* * *

لاحظت (عبير) أن الحارسين يقتادانها فى مزيج غريب من الإرغام والاحترام .. هما لا يتركان لها الخيار ، وفى الوقت ذاته لا يجسران على أن يعنفا بها .. بل أنهما لا يجسران على رفع عيونهما نحوها ..

لم تكن هناك كلمات .. فالمحادثة مختصرة جدًا ..

أخيرًا ترى خيمة عملاقة .. على باب الخيمة مزيد

من الحراس المدرعين شاكى السلاح .. كلهم ينتحون جانبًا كلما دنت منهم ..

إنها أسيرة كما هو واضح .. لكنها أسيرة عظيمة القدر ..

كانت الخيمة من الداخل مليئة بالرجال .. رجال أقوياء كالثيران ينتفش الشعر من شواربهم ولحاهم كأنما حول رأس كل منهم شعلة موقدة .. وكانت هناك منضدة بدائية فى الوسط ، ونار مشتعلة تم اختيار موضعها تحت فتحة من فتحات الخيمة بحيث لا يملؤها الدخان ..

رماح وسيوف معلقة أو مغروسة على الأرض .. جلود منشورة عليها رسوم واضح أنها خرائط ..

أما ما أثار اهتمامها أكثر من سواه على المنضدة فهو مجسم .. نعم مجسم يبين جبالاً وعرة وقوات جيش وما إلى ذلك ..

هذه غرفة عمليات حرب .. كل هذه الغرف تتشابه سواء كانت قاعة تحت الأرض مليئة بالحسابات الآلية

فى (البنتاجون) أو خيمة رثة فى شبه جزيرة (إيبريا) ..

وتابعت العيون التى نظرت لها أولاً ، ثم تمحورت حوله .. ذلك العملاق الفارع الواقف فى صدر المكان .. كتلة من العضلات تطل من دروع ، فهو ليس من الطراز الذى ينزع الدروع وقت الراحة .. يداه فى خصره وساقاه متباعدتان .. كأنه تمثال اسمه (السيطرة) ..

دون ترجمة عرفت أن هذا هو (هانيبال) ..

لايمكن إلا أن يكون هو ..

فيما عدا النظرة الحادة القوية والشخصية الجاثمة كالجبل على النفوس ، فإن ملامحه هى ملامح أى رجل ملتح أسمر .. والحقيقة هنا هى أن أحدًا لا يعرف شكل (هانيبال) بالضبط .. توجد تماثيل وصور لكل قائد فى التاريخ تقريبًا ، إلا هذا الرجل .. باستثناء تمثال لايقول الكثير فى متحف (نابولى) .. كما أن

الرجل لم يكتب مذكرات أو تعليمات من أى نوع ، كأن شعاره فى الحياة هو : ليس لدى ما يقال ..

وقد عرف علماء التاريخ حقيقة أن الرجل لم يكن ثرثارًا على الإطلاق ..

قال (هانيبال) بصوت مدوّ :

- « ستأتين معنا يا (برسيفون) .. »

كان هذا اسمها إذن ..

صاح أحد القواد فى شبه استنكار :

- « سيدى القائد .. إنها أسيرة رومانية والخيانة لن .... »

من جديد كرر (هانيبال) :

- « ستأتين معنا يا (برسيفون) .. »

فصمت الجميع توترًا ..

كان الرجل قد قدم لها معلومات لا تقدر بثمن .. إنها أسيرة رومانية .. اسمها (برسيفون) .. وستذهب

معهم إلى أين ؟ الله وحده يعلم ثم هؤلاء القوم .. المعلومة الأخيرة المهمة هى أنه يحبها أو يميل إليها .. وإلا فلماذا يختصها بالدخول لخيمته ، ولماذا يصر على أن تأتى معهم ؟

قال وهو يشير إلى المجسم الموضوع على المنضدة :

ـ « (روما) لا تتوقع أن أهاجمها الآن .. ولو فعلت لكنت مجنونًا إذا فكرت فى اجتياز ذلك الطريق .. ثمة طريق منطقى هو البحر ، لكنه مملكة الرومان بلامنازع ، وأساطيلهم فى كل صوب منه .. لذا سأجتاز جبال البرانس والألب بهذا الجيش .. لنهاجم روما من حيث لا تتوقع .. »

هنا بدأت تتذكر التفاصيل ..

حملة (هانيبال) الرهيبة عبر جبال الألب .. الحملة التى لم يستطع أحد من علماء التاريخ ولا الاستراتيجية فهم كيف تمت ولا كيف نجحت .. كانت هناك أفيال

وزجاجات خل و ... إنها رحلة شاقة رهيبة فى أسوأ ظروف ممكنة .. وما زالت تدرس بعد ألفى عام من هذه الأحداث باعتبارها معجزة غير عادية ..

ولكن .. هل تتحمل هى حملة كهذه ؟ واضح أنه لاخيار أمامها ..

وفكرت فى (المرشد) المقيت .. تبًا له ! هذه إذن هى فكرته الخاصة جدًا عن تسليتها ..

قال (هانيبال) لقواده وهو يدور بالمشعل حول المجسم :

ـ « التحرك غدًا .. تذكروا القسم .. »

تبادل القواد النظرات ثم صاحوا فى صوت واحد :

ـ « نقسم أن نكره (روما) إلى الأبد ! »

ـ « التحرك غدًا .. »

نظر له القواد .. كانت فى أذهانهم آلاف الأسئلة لكنهم لم يجسروا على الكلام ، وانسحبوا فى تثاقل ..



لم تستطع (عبير) أن تغلق عينيها .. هذا طبيعى بالفعل ، بالنسبة لواحدة تعرف أن عليها عبور جبال البرانس غدًا ..

وقفت (عبير) لا تعرف ما هى الخطوة التالية لها ، فرفع (هانيبال) رأسه وقال فى صرامة :

ـ « نامى جيدًا .. التحرك غدًا .. »

ثم هز رأسه فأبعدها الحارسان برفق متجهين إلى خارج الخيمة ..

الحق أن (هانيبال) هذا كان قليل الكلام فعلاً ...

* * *

لم تستطع (عبير) أن تغلق عينيها ..

هذا طبيعى بالفعل ، بالنسبة لواحدة تعرف أن عليها عبور جبال البرانس غدًا .. ولأى غرض ؟ حملة عسكرية فى عصر سحيق ، وضد من ؟ ضد الإمبراطورية الرومانية بجلالة قدرها ..

جلست جوارها الجارية السوداء ، وراحت تغنى بصوت مبحوح يبدو أن الغرض منه بعث النعاس فى عينيها ، لكن (عبير) كانت أبعد ما تكون عن هذا .

سألت الجارية وهى تجلس فى مضجعها :

- « ما هى القصة بالضبط ؟ »

كانت تتحدث باللاتينية ببراعة منقطعة النظير .. كأن ما تتكلم به مجموعة من المصطلحات الطبية .. وكل كلمة تنتهى بـ (أوس) فخيمة رصينة .. حين تتحدث عن الإنسان لا يبدو لكلامك أهمية ما ، لكن حين تتحدث عن (الأنثروبوس) يتخذ كلامك طابعًا علميًا مهيبًا يجمد الدم فى العروق .. كأن الرطانة هى ثياب السهرة الفخيمة التى يلبسها العامة فيبدون من الصفوة ..

كما هى العادة فى (فانتازيا) لم تندهش الجارية .. تصور أنت أن صديقك فى الكلية يسألك فجاة عن اسمك واسمه واسم الكلية وعن مغزى الدراسة بها وعن طريق الوصول إليها .. لكن فى (فانتازيا) تبتلع الجارية هذا بتواضع وتبدأ فى إخبار سيدتها بما كان مفروضًا أن تعرفه جيدًا ..

قالت الجارية التى كانت تفهم اللاتينية جيدًا :

- « كان سيدى القائد (هانيبال) قد استولى على كل أقاليم إسبانيا ما عدا (ساجونتو) .. وقد تمكن أخيرًا من الظفر بها بعد حصار دام ثمانية أشهر .. لكن (روما) اعتبرت أنه بهذا الغزو قد داس على قدمها .. لم تعد على استعداد للتسامح أو التفاهم ، وهى تعتبر (هانيبال) الآن عدوها رقم واحد .. لقد بدأت الحرب البيونية الثانية .. »

فى غباء تساءلت (عبير) :

- « بيونية ؟ ما معنى هذا ؟ »

- « بيونية .. لا أعرف كيف أصف .. إنها .. »

ثم وجدت الكلمة فتهلل وجهها الأسود :

- « بيونية .. إنها أى شىء يمت لـ (قرطاجة) .. فيما بعد سيدخل مصطلح (بيونية Punic) قواميس اللغة ليكون معناه (خائن) .. إن الرومان قومك يتهمون (قرطاجة) بالغدر فى كل شىء .. »

ـ « فهمت .. ولكن استمرى فى قصتك .. »

قالت الجارية :

ـ « إن (هانيبال) هو أحد أبناء القائد العظيم (هاميلكار برقة) حاكم (قرطاجة) .. اعتاد الرجل أن يطلق على أولاده (أشبال الأسد) .. وهم (هانيبال) و(هاسدوبال) و(هانو) و(ماجو) .. أما (هانيبال) فمعنى اسمه (سعادة بعل) .. إن (بعل) هو الصنم المفضل لهؤلاء القوم ، وتماثيله تظهره إنسانًا برأس ثور مفرود الذراعين .. وقد كان (سعادة بعل) جنديًا بارعًا بحق ، برع فى فنون القتال منذ كان فى التاسعة من عمره .. وفى هذه السن المبكرة قام أبوه بذبح ضحية بشرية لـ (بعل) وجعله يضع يده عليها ويقسم على أن يكره (روما) إلى الأبد .. ويقال إنه الرجل الوحيد فى التاريخ الذى التزم بقسمه بهذا الشكل الحرفى .. وقد كان يعيش مع أبيه فى (قرطاجة) فى تونس .. ثم ذهب معه لغزو إسبانيا .. وسرعان ما انتخب القائد العام وهو فى السادسة والعشرين من عمره ..

« الآن يواجه (هانيبال) العظيم تحدى حياته كلها .. لقد صارت الحرب مع (روما) علنية .. حقيقة واقعة ، ولم يعد من مجال للتراجع .. »

بدأت (عبير) تدخل الجو نوعًا ..

وإذ صرفت الجارية ظلت فى الظلام وقتًا لا بأس به ، تصغى لصوت الليل من الخارج .. وتفكر ..

وكما يحدث عادة مع الذين يفكرون فى الظلام ، لا تعرف كيف نامت .. لكنها فعلت ، وقد كان هذا رحمة بها لأن يومًا عسيرًا كان ينتظرها ..

* * *

3ـ بداية الزحف ..

عند الفجر شعرت بالجارية توقظها ..

هذا حرام ! لم تكن من هواة الاستيقاظ مبكرًا .. وخطر لها أن (روما) لن تكسب الحرب وتهزم (قرطاجة) لو أنهم تركوها تنام ساعة أخرى .. هذا الرجل ينوى الزحف نحو إيطاليا فلن يحدث البكور فارقًا يذكر ..

كان الفجر باردًا ، فإذا أضفنا لهذا أنها فى إسبانيا لفهمنا سر الرجفة التى كانت تعصف بها .. صحيح أنهم فى مايو ، لكن يبدو أن الفصول كانت مختلفة فى هذا الزمن السحيق .. وقد وجدت دثارًا من الفراء ، فلفته حول جسدها وأكثر رأسها ..

قدمت لها الجارية شيئًا فى جرة .. تذوقته (عبير) فخمنت أنه مزيج من العسل واللبن ..

ثم إنها خرجت من الخيمة لترى مشهدًا لا يمكن وصفه ..

إن حشدًا مكونًا من أربعين ألف محارب لا يمكن أن تقتحمه العين ..

كانت الخيول تصهل كأنها تحاول الفرار من ركابها ، والبخار يتصاعد من مناخيرها كأنما هى وحوش أسطورية أقرب إلى التنين ..

وكان هناك جنود من المشاة فى كل صوب يعدون أسلحتهم ..

الواقع أن الأمر بدا كبرج (بابل) .. هل ترى هؤلاء الجنود السمر الذين ينفخون فى الأبواق ، ويركبون الخيول دون سروج ؟ إنهم المراكشيون .. لهم شعور مصففة مضفرة بعناية وأسنان ذهبية .. قليلو الكلام جدًا .. يلبسون جلود النمور وفوقها عباءات بيض .. وهم لا يقاتلون إلا بالرمح لهذا يغدو الاقتراب منهم شبه مستحيل .. أما إذا كنت محظوظًا ونجحت فى

الاقتراب من أحدهم ، فهو لا يقاتلك بيد واحدة كما تفعل أنت ، وإنما هو قادر على أن يقاتلك باليدين معًا بينما يحتفظ بتوازنه على ظهر الجواد كأنما هو ملصق إليه بالغراء ..

أما هؤلاء العمالقة فهم الليبيون .. إنهم أسرع الفرسان طرًا .. تعرفهم بسهولة من خوذاتهم الجلدية المميزة ..

المحاربون (المسيليون) يضعون على رءوسهم ما يشبه القفص الحديدى ، أما هؤلاء أصحاب الخيول المدرعة فهم (الكلتيبريون) .. وهم رماة بارعون .. لا تنس أن بعض قذائفهم كرات نارية من القار المشتعل ، ولديهم قذائف قادرة على تحطيم الدروع .. أى أنها نوع من الطلقات الخارقة ..

أما هذه فليست وحوشًا أو مجموعة من المذعوبين .. إنهم الإسبان الذين يرقصون حول النار ليلاً ، ويضعون رءوس الأسود والذئاب على رءوسهم .. إنهم خفاف

الحركة إلى حد مرعب ، وعندهم القدرة على أن يروا السهام تقذف نحوهم فيجلسوا القرفصاء إلى أن تمر فوق رءوسهم ، ثم ينهضوا ويقذفوا الرماح ..

هناك حشد من رعاة الباسك بفئوسهم العجيبة التى هى قمة التكنولوجيا فى هذا العصر .. تصور فأسًا له رأسان وتخيل أى دمار يمكن أن يحدثه !

هؤلاء القوم فى اللباس الأحمر الأنيق هم ضباط من قرطاجة .. وعملهم هنا هو الترجمة .. هذا على قدر معلوماتى الجيش الوحيد فى التاريخ الذى امتلأ بالمترجمين !

أما عن الأسلوب الذى استطاع به (هانيبال) أن يوحد هؤلاء ويجعل منهم جيشًا متجانسًا ، فلغز من ألغاز التاريخ .. لكن كل أعدائه شهدوا له بالعبقرية التى مكنته من تجنيد كل هذه الجنسيات المختلفة فى حرب مستمرة طيلة خمسة عشر عامًا دون مشاكل .. لا اضطرابات .. لا قلاقل ..

من بعيد ترى (عبير) ما يشبه ناطحات السحاب الحية تمشى فترتج بها الأرض ارتجاجًا ..

هذه أفيال .. هذا الصراخ الذى يمزق الآذان هو صراخ هذه الوحوش العملاقة وهى ترفع خراطيمها فى هواء الفجر البارد ..

لكن أية أفيال ! لابد أن أفيال ذلك العصر كانت أكثر ضخامة من أفيالنا البائسة فى حديقة الحيوان التى تفعل أى شىء من أجل قطعة عملة تدس فى خراطيمها .. ضخمة كالكوابيس .. مشعرة كأنها الماموث الذى تراه فى الصور .. وقد غلفوها بالدروع ليقوها طعنات الرماح فبدت كأنها دبابات حية .. بالفعل كانت هذه الأفيال دبابات قبل اختراع الدبابات ، وكان التأثير الأهم الذى أراده (هانيبال) نفسيًا .. ها هو ذا العملاق القادم من إفريقيا مع وحوشه المخيفة التى لم يرها الأوروبيون من قبل ..

كان المشهد مهيبًا .. وقد شعرت (عبير) بأنها ستفقد الوعى من هول ما تراه ..

ثم يبرز القواد .. هنا يكون القائد أضخم من جنوده مجتمعين .. إنه قائدهم فقط لأنه الأقوى والأشرس وليس لأنه تخرج فى الكليات الحربية ..

يصدر القواد الأوامر ، وسرعان ما بدأ الجنود يحتشدون فى صفوف ..

ثمة جندى يدنو منها فى أدب حازم .. يقتادها إلى ...

إلى فيل يبرك على الأرض وهو لا يكف عن إصدار ذلك الصراخ المزعج .. هل تتوقعون منى أن أركب هذا الشىء ؟ للأسف كان هذا صحيحًا .. إن ظهر الفيل يعلوه هودج .. وهى ستركب هذا الهودج كأنها العروس فى ريفنا قديمًا حين كانت تركب المحمل وهى ذاهبة إلى عريسها ..

لم تكن تملك ترف الاعتراض ، وسرعان ما دخلت الشىء .. وهى تحاول أن تحبس أنفاسها كى لا تشم رائحة الفيل الذى لم يكن آية فى النظافة ..

ثم بدأ الفيل ينهض ..

طبعًا لن أصف شعورها وهى تقذف فى كل الاتجاهات ، ولن أحكى عن صرخاتها التى لابد أنها أزعجت النائمين فى روما .. هذا شىء مفروغ منه ..

لكنها فى النهاية وجدت أنها استقرت هناك .. هناك فوق كل الرءوس .. هناك على ارتفاع خمسة أمتار على الأقل .. وأمامها كانت أذنا الفيل العملاقتان ومؤخرة رأسه تحرس الأفق ..

شعرت بشىء من النشوة تستخفها .. ومع النشوة شعرت بقلق بالغ : كيف ومتى يحق لها أن تدخل الحمام وهى فى هذا المكان ؟ لو كانت راجلة أو تركب جوادًا لأمكنها أن تجد حلاً ما ، لكن هبوطها من هذا الجبل عملية تشبه هبوط الإنسان على سطح القمر ..

ثم قررت أن ترجئ الأمر حتى تبلغ هذا الجسر .. هذه هى (فانتازيا) حيث لاتشكل المثانة المليئة مشاكل ..

وإلا فمتى رأى أحدكم (سوبرمان) يدخل الحمام على مدى كل هذه السنوات من عمله ؟

لقد بدأ الزحف الذى يبلغ 1500 ميل ..

هى الآن جزء من حملة (هانيبال) .....

★ ★ ★

تتقدم المسيرة الرهيبة وسط الأراضى الإسبانية .

يخرج الفلاحون ليرمقوا المشهد ، لكنهم لا يقولون شيئًا لأن الحرب لا تعنيهم فى شىء .. هم فقط يهابون هذا الفاتح العظيم القادم من شمال إفريقيا ..

الشمس تملأ الأفق وتغمر السهول .. من بعيد الجبال الرهيبة التى تعرفها إسبانيا والتى سيكون على الحملة أن تعبرها ..

من فوق الهودج لاحظت (عبير) أن هناك فارسًا يمتطى جوادًا ويمشى مع خطى الفيل ، وهو لاينى يدون بعض الملاحظات فى مفكرة يحملها .. الغريب

أن زى هذا الفارس يبدو حديثًا نوعًا .. كأنه من القرن السابع عشر أو الثامن عشر ، وله طابع أوروبى لاتخطئه العين .. على رأسه قبعة مثلثة مألوفة .. إنه .. نعم .. إنه (نابليون بونابرت) لاشك فى هذا .. كما كانت تراه فى كتاب التاريخ بالمدرسة ..

انتظرت حتى صار فى متناول صوتها ثم صاحت :

- « سيدى .. »

بحث عن مصدر الصوت ثم نظر لأعلى ليجدها تنظر إليه من ارتفاع خمسة أمتار .. فرفع حاجبين متسائلين . قالت :

- « لماذا أنت هنا بالضبط ؟ »

- « يا له من سؤال ! أنا أدرس هذه الحملة .. سوف أستعين بها فى وضع خطة زحفى على إيطاليا فى القرن الثامن عشر .. إن (هانيبال) سيكون معلمى .. ولسوف تكون هذه الحملة هى ما يجعل اسم (بونابرت) ملء الأسماع والأبصار .. »

- « فهمت .. حظًا سعيدًا .. »

وأسدلت الستار على جانب الهودج بينما القافلة تواصل طريقها ، وقررت أن الوقت قد حان كى تتعلم النوم على ظهر فيل .. إن هذه الرحلات مملة وعلاج الملل الوحيد هو النوم ..

جاء المساء فجاء من يساعدها على الهبوط عن ظهر الفيل بوساطة درَج مصنوع من الحبال الليفية المجدولة .. وقد جاءت هذه الخدمة فى وقتها ، لأن المثانة ....

وكانت الخيام قد نصبت فى كل صوب ، واشتعلت النيران .. وجلس الجنود يستريحون من عناء يوم شاق ..

أشاروا لها إلى خيمة تبدو أكثر أهمية من سواها ، فاتجهت إلى هناك وهى تترنح من فرط الدوار شاعرة أن قدميها مصنوعتان من العجين .. إن يومًا كاملاً على ظهر فيل لأمر لم تعتده قط ..

فى الداخل كانت هناك مأدبة عظيمة موضوعة على الأرض .. وكانت هناك مشاعل .. وعدد لا بأس به من القادة يلتهمون اللحم فى نهم .. وفى صدر المكان جلس (هانيبال) بضخامته المعتادة حتى يبدو وهو جالس كأنه واقف ..

- « : تعالى يا (برسيفون) وتناولى بعض العشاء .. »

أفسح لها جداران من الصخر الحى المكان بينهما فجلست .. كان أمامها فى الطبق شىء مرعب لاتعرف ما هو لكنه مشوى بعناية ... فمدت يدها وفتشت عن شىء يمكن انتزاعه .. أخيرًا خرجت قطعة من هراديم اللحم بين أناملها فراحت تلوكها من دون تلذذ ..

ورفعت نظرها تختلس النظرات ، فوجدت أن القادة يأكلون كأن هذا آخر زادهم .. وهذا ليس تعبيرًا بلاغيًّا .. إلا أن (هانيبال) نفسه بدا قليل الأكل .. كان يمسك بلقمة ما وقد وضع كومة صغيرة من الملح أمامه ، وراح يغمس طرف اللقمة فى الملح كما نفعل نحن مع (السميط) .. الواقع أنه كان إلى شرود الذهن أقرب ..

فى النهاية صاح بصوته الجهورى :

- « يكفى هذا .. يجب أن تناموا مبكرًا .. انصراف !! »

نهض الرجال متململين ، فمنهم بالطبع من كان يرغب فى المزيد من اللحم والشراب .. لكنه صاح آمرًا :

- « إلىّ بالقسم !! »

- « نقسم أن نكره (روما) إلى الأبد ! »

- « انصراف ! »

أخيرًا خلت الخيمة الواسعة تمامًا إلا منهما ومن بعض المشاعل .. وكان هناك حارس مدجج بالسلاح أشار له (هانيبال) بعينه فابتعد ..

للمرة الأولى تنفرد به .. ولم يبد لها هذا الشعور مريحًا ..

قال بعد صمت طال :

- « أعرف ما تفكرين فيه يا (برسيفون) .. أعرف أننى أمثل لك العدو الذى قتل قومك ، ويهدد وطنك .. لن أبالى بهذا كله .. لكنى لن أرغمك على شىء ... وأنت تعلمين أننى قادر على إرغامك .. »

كان يتكلم وهو يثنى عضده، فبرزت عضلاته كأنها صخور .. وقد ارتسمت فوقها أوردته بوضوح يحبس أنفاس أى عالم تشريح .. الحقيقة أن هذا الرجل كان قادرًا على إرغام أسد على أن يغرد فى الفجر ..

عاد يقول :

ـ « أنت تعرفين أنى أنوى اتخاذك زوجة لى .. لكنى محارب فظ لسانه جاف كالصحراء .. محارب لم يعتد أن يلفظ كلمة رقيقة واحدة .. هاتان يدان خلقتا لقطع رقاب الرومان لا لقطف الزهور .. هاتان عينان خلقتا للبحث عن الكماة لا لتوجيه النظرات الحانية .. لا يملك (هانيبال) العظيم شيئًا من الأشياء التى تروق للنساء ما عدا القوة .. لكن (هانيبال) عادل وهو يكره انتزاع شىء من الضعفاء .. قوة (هانيبال) مسلطة على من يعادلونه فى القوة والبطش .. أما من هم أضعف منه فهو يحاول أن يقنعهم .. أن يأخذ منهم ما يريد طواعية وبموافقتهم الكاملة .. لهذا لا أرغمك على شىء .. لهذا لن أضغط عليك .. »

أثارت دهشتها هذه الكلمات المتحضرة التى تقال قبل الميلاد بقرنين .. وممن ؟ من محارب شديد البطش حتى إن (روما) لا تدعو فى صلاتها إلا دعاء واحدًا : أن يموت (هانيبال) ..

حرك هذا الرقى شيئًا فى روحها .. لكنها لم تجرؤ على الاعتقاد أنها ستحبه يومًا .. إنه مرعب رهيب .. ولو أحبته سيكون هذا تنويعًا على عقدة (الجميلة والوحش) الشهيرة ..

أردف وهو ينزع إصبعًا من الموز ويقشره :

ـ « لقد طلبت أن تأتى معى فى هذه الحملة لأننى لا أطمئن إلى بقائك وحدك فى إسبانيا .. يوجد موضع وحيد آمن أعرفه فى العالم وهذا المكان هو بجوار (هانيبال بن هاميلكار) .. ولسوف أوجه لك السؤال ذاته أربع مرات فى أثناء الحملة .. فإن أجبت بالموافقة فبها ونعمت ؛ وإن أبيت أعدتك إلى أقرب معسكر لقومك ، الذين أمقتهم حتى الموت لكن مشاعرى استثنت منهم واحدة .. »

هزت رأسها فى تقدير ..

مهما قالوا عن (هانيبال) فى كتب التاريخ فهى على الأقل تعرف أنه (جنتلمان) بالمعنى المعروف لهذه الكلمة .. وهذا متوقع على كل حال لأن الرجل كان فاتحًا عظيمًا ، وهؤلاء القوم يندر أن يكون لديهم وقت كاف للاهتمام بالنساء أو مضايقتهن ..

انتهى الكلام فساد الصمت .. كما قلنا لم يكن الرجل يحب الكلام الكثير ..

بعد دقائق قال لها :

ـ « نامى جيدًا .. فغدًا يوم شاق .. »

هزت رأسها وغادرت الخيمة العملاقة وهى توشك على التعثر فى ثوبها ..

★ ★ ★

كانت (قرطاجة) ـ التى تقع فى (تونس) ـ عاصمة كبرى أنشأها الفينيقيون حوالى العام 800 قبل الميلاد ..

تقول الأسطورة إن ملكتهم (ديدو) أنشأتها .. وكانت تلعب دورًا مهمًا كمركز تجارى يطل على البحر المتوسط ويستقطب كل تجارته ..

هنا حدث ما لابد أن يحدث للشعوب التى تطل على البحر ولا تخشاه .. بدأت قرطاجة تتوسع وازدادت عضلاتها نموًا كقوة خليقة بأن تثير قلق الإمبراطورية الرومانية ..

ثم إن (هاميلكار) أبا (هانيبال) زحف على إسبانيا لينشئ هناك (قرطاجة) الجديدة .. ومن لحظتها عرف الجميع أن هذه الإمبراطورية لن تكتفى بذلك ، بل ستزحف على باقى أوروبا ..

وقد راقبت (روما) فى توجس ما يقوم به (هانيبال) من غزو لإسبانيا وجمع أقطارها المتباعدة تحت رايته .. لكن ضربة ضم (ساجونتو) كانت هى القشة التى قصمت ظهر البعير ، وأعلنت (روما) الحرب على هذا المحارب الأسطورة القادم من شمال إفريقيا ليزيد الحياة تعقيدًا ..

لكن (هانيبال) لم ينتظر الفترة التى تقع بين الفعل ورد الفعل . لقد بادر إلى الزحف سريعًا وعبر أغرب الطرق المحتملة ..

لكنه قبل رحيله حرص على التأكد من ثلاثة أشياء :

1 - استقرار الوضع هنالك عبر البحر المتوسط .. لابد أن تكون قواعده آمنة فى تونس ..

2 - استقرار الوضع هنالك فى إسبانيا التى يبدأ منها حملته ..

3 - موقف القبائل الغالية التى سيقابلها فى رحلته والتى تحمل جميعها حقدًا بالغًا نحو روما ..

وهكذا بالنسبة لرجل لايترك ثغرات فى خططه ، صار كل شىء معدًا لأصعب حملة فى تاريخ الحملات العسكرية ..

والهدف ..... روما ..

* * *

4 - الزحف نفسه ..

عند الفجر كانت هناك معركة ..

صحت (عبير) من نومها لتسمع صوت الصراخ ، وصوت قراع السيوف ..

أمعنت النظر إلى بعيد فرأت أن هناك عددًا من الجنود يلتحمون مع جنود آخرين .. معركة صغيرة هى فلا يمكن بحال أن يتجاوز عدد المتصارعين العشرين ..

أيًا ما كان هؤلاء المتسللون فهم حمقى .. لايمكن لهذا العدد البسيط أن يغامر بالتسلل إلى معسكر القرطاجنيين ..

وكما توقعت بالضبط انتهت المعركة سريعًا جدًا .. لقد سقط أكثر المتسللين مضرجين بالدماء ، بينما

التف الجنود حول ثلاثة من الأسرى الذين راحوا يقاتلون كالأسود ، لكن الكثرة تغلب الشجاعة دومًا ..

وبرز قائد قرطاجى متضايق من هذه الضوضاء التى حرمته النوم ، وخرج من خيمته وهو يفرك عينيه :

- « ماذا يحدث هنا بالضبط ؟ »

- « جواسيس رومان يا سيدى ! »

هؤلاء إذن من بنى جلدتها .. دفعها الفضول إلى أن تتقدم أكثر لترى هذا المشهد ..

كانوا أوروبيين فعلاً يختلفون عن الوجوه السمراء القاسية للقرطاجيين .. وكانوا يلبسون كالفلاحين الإسبان .. وبرغم أن وجوههم صارت أقرب إلى درنات البطاطس من فرط ما تلقوه من ضربات ، فإنها استطاعت أن تميز ملامح (شريف) فى وجه أحدهم ..

هذا الشخص بالذات كان ينظر لها فى ثبات وهو مكبل بين ستة جنود أشداء .. وكلما أبدى حماسة زائدة تلقى ضربة على مؤخر عنقه بمقبض السيف ..

ظل ينظر لها فى ثبات ثم صاح بصوت مبحوح :

- « أنت رومانية ! عرفنا هذا .. آى !! »

وحاول أن يتماسك من هول الضربة ثم بصق دمًا وصاح :

- « واجبك نحو قومك أن تقتلى (هانيبال) .. يجب أن تفتكى بـ (هانيبال) ! »

هنا هوت الضربة الأعنف على رأسه فهوى أرضًا ..

لحسن الحظ كان الحوار باللاتينية ، وبدا واضحًا أن أحدًا من الواقفين لا يعرف هذه اللغة .. لكنهم أرادوا منع هذا المتسلل من عمل غسيل مخ للأسيرة الحسناء ..

قال القائد القرطاجى وهو يتثاءب ويعود لخيمته :

ـ « لو كنتم ستوقظوننى كلما قابلتم جاسوسًا فإن نهايتى قريبة .. »

ثم أخرج رأسه من ستار الخيمة وأردف :

ـ « اقطعوا رءوس من بقى حيًا ! »

وعلى الفور هوت السيوف ، وأغمضت (عبير) عينيها كى لا ترى المشهد المريع .. هؤلاء القوم يجيدون قطع الرقاب حقًا ..

دخلت إلى الخيمة مترنحة تتماسك كى لا تفقد وعيها ..

المفترض أن من ماتوا هم من قومها ، وعليها أن تجن كمدًا ، لكنها لم تتأثر إلا بفكرة الإعدام ذاتها .. إنها لاتشعر ميلاً من أى نوع نحو الرومان .. هى كذلك لاتشعر بأى ميل نحو القرطاجيين ..

وتساءلت .. هل عليها أن تشعر بالحقد وتقرر قتل

(هانيبال) ؟ هل هذا هو الدور المطلوب منها ؟ لكنها لا تمثل قصة لا تملك نصها .. ستترك الأمور تجرى فى أعنتها .. ولسوف تشعر بما تريد (فانتازيا) أن تشعر به ..

وحتى لو أرادت : كيف يمكن قتل (هانيبال) ؟

* * *

المكان : روما ..

الزمان : فى هذه الأثناء طبعًا ..

الحدث : وهل هناك موضوع آخر ؟ إن القادة الرومان يناقشون نوايا (هانيبال) ...

كان هناك رواق طويل .. بالطبع يزدحم ببعض الفلاسفة الرواقيين .. أين يتواجد الفلاسفة الرواقيون إن لم يكن فى رواق كهذا ؟ طبعًا كان هناك بعض الفلاسفة الكلبيين يتسولون وبعض الأبيقوريين ينامون منهكين من فرط اللهو ليلة أمس .. لكن لاتشغل بالك بهم من فضلك .. هذه الفلسفات يونانية طبعًا لكن كان لها أتباع أوفياء فى روما ..

تماثيل (زيوس) والسيدة حرمه (هيرا) فى كل مكان .. وفى الواجهة يمكنك أن ترى أن هناك مجموعة من المقاعد المتراصة كما فى المسارح بينما يقف أمامهم رجل أشيب يلف عباءته البيضاء حول ذراعه، ويتكلم فى حماسة .. الوجوه كلها مقطبة مما يوحى بأن الأمر جد خطير ..

يقول الرجل المتقدم فى السن فى رزانة :

- « (هانيبال) ينوى شيئًا .. نحن متأكدون من هذا .. »

سأله أحد الجالسين :

- « هل لديك تصور ما أيها الجنرال (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور) ؟ »

الاسم حقيقى طبعًا وينم عن ذاكرة ممتازة لدى هؤلاء الرومان .. بينما كاتب هذه السطور لايستطيع طبعًا إلا نسخ الاسم نسخًا من كتاب تاريخ، مع استعمال خاصية (انسخ وألصق) فى منسق الكلمات كى لايضطر إلى إعادة هجاء هذا الاسم المريع ..

لكننا على الأقل نعرف أن هذا الجنرال هو (فابيوس) .. وسياسته شهيرة جدًا فى تاريخ الاستراتيجية، لأنها سياسة البعد عن الاستفزاز قدر الإمكان والتغيير ببطء تدريجى لايحس .. لا أعرف إن كان أحدكم قد سمع عن (الاشتراكية الفابية) التى كان (برنارد شو) يؤمن بها .. إنها الاشتراكية التى تسعى إلى تغيير المجتمع ببطء وهدوء .. كان هذا الاسم (فابية) منسوبًا إلى القائد الرومانى (فابيوس) ..

قال (فابيوس) :

- « إن جواسيسنا لم يعودوا قط .. لهذا أرى أن ننتظر .. فقط أنا أعرف شيئًا يقينًا : هذا الرجل ينوى أن يهاجم روما .. »

صاح أحد الجالسين فى عصبية حتى إنه نسى أن يدارى ساقه المشعرة بعباءته :

- « يهاجم روما ؟ هذا البربرى ؟ كيف يكون له هذا ؟ »

فى هدوء قال (فابيوس) :

ـ « لقد تعلمنا من تجاربنا أن (هانيبال) يملك خاصتين .. »

وبدأ يعد على إصبعيه السبابة والوسط :

ـ « أولاً هو يكره روما بجنون .. ثانيًا هو ليس بالخصم الهين .. وقد عرفنا أنه إن قال فعل .. »

ـ « والعمل ؟ »

ـ « كما قلت .. ننتظر .. ونكون حذرين .. »

هنا نهض رجل أصلع قصير القامة متين البنيان من الطراز الذى ندعوه فى العامية (مدكوكًا) .. وقال فى غضب :

ـ « أنا القائد (بوبليوس كورنيليوس سكيبيو) أرفض الانتظار .. لابد من قتل (هانيبال) .. »

إنه إذن من أقوياء الذاكرة الذين يعج بهم هذا العالم ..

نهض قائد آخر ووقف أمام الناس وهتف :

ـ « وأنا المستشار (لوسيوس باولوس) أرى الشىء ذاته .. لابد من اغتيال الرجل .. »

ساد صمت رهيب .. من جديد تصدق مقولة (برنارد شو) الرائعة : الاغتيال هو أعنف أنواع الرقابة .. لكن من يفعلها وكيف ؟

قال أحد الجالسين :

ـ « هناك أسيرة رومانية يحتفظ بها فى معسكره ، وهى ترافقه فى كل حملاته .. من الواضح تمامًا أنه وقع فى هواها .. إن كل بطل له كعب (أخيل) الخاص به . يمكننا أن نفترض أن (هانيبال) يجلس فى معسكره على بعد أمتار من نصل روما .. »

ـ « جميل .. لكن كيف نصل إليها وكيف نقنعها ؟ »

ـ « المشكلة الأهم هى : كيف تستطيع ؟ »

ـ « السم .. لقد كان دومًا سلاح النساء الجريئات .. فقط المرأة تعرف كيف تناولك كأس المنون لتجرعها راضيًا .. ثم ترقص بعد هذا حول جثتك .. »

من جديد ساد الصمت . كأن الصمت واحد من المجتمعين هنا ، وله رأيه الخاص الذى يعلنه من آن لآخر .. ثم قال (فابيوس) :

- « اتركوا لى هذه النقطة .. أرى أن كل شىء يجب أن يتم بهدوء وترو .. »

الحقيقة أن هدوء هذا الرجل ، وإصراره الدائم على التروى فيهما شىء ما غير آدمى .. شىء لا يمكن تحمله .. على الأقل بالنسبة لواحد نافد الصبر مثل كاتب هذه السطور .. لكن هذا هو التاريخ وعلينا أن نقبله كما هو ...

★ ★ ★

كان عبور النهر عملية شديدة التعقيد ..

لقد أرسل (هانيبال) رجاله يشترون بالفضة كل قارب وكل طوف يمكن شراؤه .. وتحمس القرويون فراحوا يبيعون ما يجدون للغزاة ، ثم راحوا يصنعون المزيد ..

وقد استغرق الأمر أيامًا حتى تم صنع الأطواف اللازمة ، وتم تغليفها بجلود الماعز ..

ثم جاء دور الأفيال ..

من المستحيل إقناع هذه الوحوش بعبور النهر إلا بالحيلة ..

وقد تفتق ذهن (هانيبال) عن فكرة لا بأس بها .. اصطنع طوفًا عملاقًا غطاه بالتراب كأنه قطعة من الأرض ، وجمع عليه إناث الأفيال ثم دفع به إلى النهر .. هكذا هرعت الذكور تلحق بالإناث سابحة عبر النهر ..

ومن الغريب أن هذه الأفيال برغم ضخامتها كانت رشيقة الحركة ..

الآن يرون أمامهم جبال الألب ممتدة عبر الأفق .. بعضها يرقى إلى المرتفعات العظمى ، حيث يمكنك أن تجد القمم وقد اكتست بعباءتها البيضاء الثقيلة .. وبعضها يهبط منحدرًا إلى الأنهار ..

تخيل أن تجد طريقك وسط هذه الجبال الوعرة ..

تخيل أن تحمل معك من المؤن والعتاد ما يكفى لتسليح أربعين ألف رجل ..

تخيل أن تقنع سبعة وثلاثين فيلاً بارتقاء هذه المرتفعات .. حاول أن تقنع قطة بصعود سلالم دارك ولسوف تدرك المعجزة التى قام بها (هانيبال) ..

أما الكارثة التى لم تقدرها (عبير) حق قدرها فكانت قبائل (الكلت) ..

إنهم مجموعة من أشرس المقاتلين يعيشون فى هذه المناطق .. وهم شديدو الجهل لم يسمعوا من قبل حرفًا عن جيش (قرطاجة) و (هانيبال) .. إن الخوف يحتاج إلى قدر من الحس المرهف .. والذكاء يحتاج إلى خيال يقظ ..

ولما كان هؤلاء الهمجيون يفتقرون إلى أى من هذه الصفات فإن جيش (هانيبال) لم يثر رعبهم ، وبدءوا

ينقضون من حين لآخر .. بالنسبة لهم لم يكن الجيش المخيف إلا مغنمًا من الجياد والأسلحة والفضة .. وبرغم أنهم لم يشكلوا تهديدًا حقيقيًا إلا أنهم لعبوا دور الذبابة السمجة التى تحيل حياتك جحيمًا ..

لكن (هانيبال) لاحظ ببصيرته النافذة أن هؤلاء القوم لا يهاجمون إلا فى النهار وينامون ليلاً ..

هكذا جرد عدة حملات ناجحة فى ظلام الليل لمهاجمة قرى هؤلاء ، وقد ظفر رجاله بالكثير من القطعان الصالحة للذبح ..

وكان يحمس الجنود المرهقين من حين لآخر :

- « هناك مدن تفعمها الثروة .. وما عليكم إلا أن تقصدوها على صهوات الجياد .. »

هكذا استمر الزحف المريع فوق جبال الألب .. وعلى جانبى الطريق كانت القبور تحفر فى الثلج بسرعة ليدفن فيها أولئك الذين لن يروا إيطاليا أبدًا ..

وهم كثير ....

أما عن العواصف فلا داعى للثرثرة .. إن العواصف الجليدية لا توصف وإنما ترى .. فجأة يصير الهواء نفسه أبيض وترتطم بوجهك كتل عملاقة من البرد ، بينما الريح تحاول جاهدة أن تدفعك من على الجبال .. والصفير يجعلك عاجزًا عن سماع أفكارك نفسها ..

وجهك يتجمد حتى لو أنك ابتسمت لتهشم اللحم .. ولو صرخت لسمعت صوت الـ (كراش ش ش ش ش) المخيف ..

وابتسمت (عبير) برغمها وهى ترى أن جيش (هانيبال) قد تحول إلى جيش من بابا (نويل) ، بسبب كل اللحى والشوارب والشعور البيضاء .. ابتسمت فسمعت صوت جلدها يتشقق على جانبى الفم ..

وكان الهودج يهتز بـ (عبير) كأنما يوشك على التحليق .. هنا كان الجنود يصرخون ويلتفون حول الفيل العملاق ، وقد جذب كل منهم طرفًا من أطراف الحبل لتثبيته ..

هذه من اللحظات النادرة التى تعرف فيها قيمة أن تركب فيلاً .. إنه ثابت كالطود على حين قد تطير بعض الخيول بمن عليها لتسقط فى الهاوية ..

لكنك ترى وسط هذه الضوضاء المجنونة رجلاً يبدو كأنه ليبى ، يلبس ثيابًا حمراء فاقعة اللون وله لحية مصبوغة بالأحمر .. يمشى بين صفوف الجنود الطائرين ثابتًا كأن قواعد الفيزياء لا تنطبق عليه .. يمشى ويصدر تعليماته من حين لآخر ويساعد هذا وينقذ ذاك ..

ومر من أمام فيل (عبير) فنظر لأعلى يستوثق من أنها بخير .. نظرة لم تطل لكنها كانت كافية ..

إنه (هانيبال) نفسه !

وتذكرت ما قالوه عنه من أنه يملك أدوات تنكر كاملة يخرج بها من حين لآخر ليراقب الجنود وقوادهم ..

ثم تهمد العاصفة لتكتشف أن هناك مشكلة أخرى ..

إن البرد يمزق الأوصال حقًا .. لا تنس هنا أن أكثر الرجال كانوا من إفريقيا واعتادوا الدفء .. لاتنس كذلك ما شعرت به الأفيال وهى مرغمة على اجتياز الجبال الجليدية .. لابد أنها حسدت أجدادها من (الماموث) و(المستودن) الذين كان الفراء يكسو أجسادهم بكثافة ..

أما عن الأخت (عبير) فقد كانت تقضى نهارها فى النوم غير المريح على ظهر الفيل ، وتقضى ليلها فى النوم غير المريح على الأرض .. حتى شعرت أنه لم تعد فى جسدها عظمة سليمة .. دعك من أن البرد يضاعف آلام العظام كأنما هو سكين تتوغل فى نخاعها بلا رحمة .. وأدركت أنها لم تمت لسبب واحد : أن هذه (فانتازيا) حيث تتناسب قوى احتمالها مع سعة خيالها نفسه .. ولو كانت فى دنيا الواقع لكانت جثتها المتجمدة مدفونة منذ أسبوع على الأقل .

ذات مرة سقطت كتلة كبيرة من الجليد أمام فيلها ..

لم يكن خطرًا داهمًا لكن المشكلة هى أن الطريق قد سد بالكامل ، وهكذا انكب الجنود يحطمون الكتلة

بالفئوس .. وكانت صلبة بالفعل ، من ثم تقدم المهندسون حاملين دنان الخل ، وراحوا يسكبون منه على الكتلة حتى تفتتت ..

كان الخل هو الطريقة التى وجدها (سلاح المهندسين) لتفتيت أى شىء يسد الطريق .. ويبدو أن خل هذا العصر كان مثل أفياله ، وليس كالخل البائس الذى تشتريه اليوم من (بيومى) البقال .. كان قويًا يتصرف كحمض الكبريتيك بالضبط .. سرعان ما تفور الصخور ويتصاعد البخار الحارق للعينين والحلق ، ثم يهمد الفوران فتجد أن الصخور ذابت ..

وسرعان ما فتح الطريق من جديد واستمرت المسيرة ..

وبعد خمسة عشر يومًا بالضبط كان جيش (هانيبال) قد عبر الألب .. وهو رقم قياسى بأى مقياس . لكنه لم يكن غير ذى ثمن ..

لقد كلفته هذه المسيرة الكثير .. كلفته اثنى عشر ألفًا من الرجال ..

* * *

5ـ مغامرة غاليّـــة ..

(بتشديد الياء كما لاحظتم)

انهيار جليدى أخير ..

كأنما الجبل الرهيب يعلن غضبته بسبب هذه الضحايا التى أفلتت منه ..

وتدحرج عالم من البياض قادمًا من عل لا يبالى بمن يقف فى طريقه .

رجال يصرخون ويسقطون أرضًا .. يبدو أننى كنت متعجلاً حين عددت خسائر جيش (هانيبال) كأنما العبور قد انتهى .. ما زالت الأعداد مرشحة للزيادة ..

ولا تدرى (عبير) كيف ولا متى طارت من فوق الفيل لتحلق بضعة أمتار فى الهواء ..

ثم تتدحرج لأسفل .. تتدحرج بلا انقطاع كأنها كرة

ثلج .. يطلق كتاب السيناريو الأجانب مصطلح (كرة الثلج) على الأحداث التى تتصاعد وتتسارع بلا انقطاع ولا تترك فرصة لالتقاط الأنفاس .. الآن تعرف (عبير) عمليًا معنى هذا المصطلح ..

سرعتها تزداد وحجمها يزداد كذلك من فرط ما التصق بها من ثلوج ..

فى النهاية تجد نفسها فى جرف عميق .. وتنظر لأعلى فتدرك أنها غاصت كثيرًا جدًا ..

تحاول الحركة .. هنا تدرك المفاجأة اللطيفة التى ادخرتها لها الثلوج .. إن ساقها مكسورة .

تصرخ .. تصرخ .. لكن الضوضاء عالية من أعلى ، فلا أمل لها فى أن يسمعها أحد ..

هكذا قررت أن تدخر جهدها وتصمد قليلاً .. ربما يجدونها ..

وربما لا يفعلون ....

* * *



ثم تتدحرج لأسفل .. تتدحرج بلا انقطاع كأنها كرة ثلج ..

عندما جاء المساء ـ والمساء يحل سريعًا هنا ـ قدرت أن مغامراتها مع (هانيبال) انتهت فعلاً .. لقد زحف الخدر على أطرافها ، وأفظع ما فى الأمر هو أنها لم تكن تشعر ألمًا فى ساقها على الإطلاق .. لا تعرف معنى هذا لكنها تعرف أنه مخيف ..

ثم بدأ عواء الذئاب يتعالى من بعيد .. هذه الوحوش الكريهة تعرف كيف تحدث تأثيرًا دراميًا مروعًا ، وكيف تمزج التوحش بالوحشة بالقنوط فى مزاج عبقرى لا يصدر إلا من ذئب ..

قدرت أن هذه الذئاب ستجد الكثير مما يشغلها فى الخارج .. لن تكون هى ضحية الانهيار الجليدى الوحيدة ..

لكنها استطاعت أن ترى السماء الصافية التى احتشدت فيها النجوم بعد العواصف .. واستطاعت أن ترى رأسًا يحملق فيها من أعلى .. ومن حين لآخر تومض جمرتاه ـ بل أعنى عينيه ـ فى جشع .. ثم تكاثرت

الرءوس .. لابد أنهم يتناقلون الأخبار : هناك فتاة .. رائع .. رومانية ؟ جميل .. مهشمة الساق ؟ ممتاز .. احضروا (المسطردة) و(الكتشاب) وابلغوا الإخوان ..

بعد نصف ساعة بدأ أول الذئاب يتشجع ويحاول فى حذر أن يهبط على حافة الحفرة ..

عملية صعبة عسيرة لكنه سينجح .. إنه أحمق لأنه سيجد عسرًا بالغاً فى الصعود ، لكن هذا لايمنع من أنه قد يصل للقاع .. وعندها ستجد نفسها فى حفرة مظلمة مع ذئب .. وأى ذئب ؟ ذئب غالى مفترس ، وكما أسلفنا القول لم تكن الأفيال ولا الذئاب ولا الخل كما نعرفها فى هذا الزمن السحيق .. كل شىء كان أقوى وأخطر وأشرس ..

كان قد وصل إلى منتصف المسافة حين دوى عواء الذئاب من الخارج .. عواء رعب لا شك فيه ..

ونظرت لأعلى فرأت أن وجوه الذئاب لم تعد هناك

ولكن وجوه رجال .. وطار رمح من الفتحة لم تدر إلى أين ذهب .. لكنها عرفت حين رأت الذئب يتكور جوارها على الأرض وهو يحاول انتزاع ذلك الشىء الذى ثقب بطنه وخرج من ظهره ...

مشاعل .. مشاعل ..

ثم حبل يهبط من الفتحة .. يتدلى منه رجل فارع الطول مشعث الشعر يبدو كذئب فى حد ذاته ..

لم تكن هناك مجاملات ولا عبارات أتيكيت .. لقد انتزع رمحه من بطن الذئب ، ثم حملها بنفس اليد الواحدة كأنها مجرفة البلدوزر على كتفه .. وسرعان ما وجدت أنها ترتفع إلى أعلى ..

هذا الرجل يستطيع تسلق حبل بذراع واحدة بينما الذراع الأخرى تحمل فتاة ورمحًا !

مرحى ! إن المستقبل رائع !

وفى الخارج وجدت الوقت ملائمًا لبعض الهستيريا فراحت تلهث وتنتفض ..

أخيرًا استطاعت أن ترى منقذيها .. فما إن رأتهم حتى تمنت لو عادت إلى الحفرة من جديد ..

لم تكن قد رأت الغاليين من قبل، لكنها سمعت عنهم وتعرف كيف يبدون .. ورأت الكثير من آثار غزواتهم .. إنهم يكرهون روما لكنهم كذلك لا يحبون (هانيبال) .. إذن هناك مصير أسود ينتظرها لو عرفوا أنها كانت مع (هانيبال) .. ومصير أكثر سوادًا لو عرفوا أنها رومانية ..

الحقيقة أن علاقة (هانيبال) بهؤلاء القوم لا يمكن فهمها .. إنهم حلفاؤه وأعداؤه فى الوقت ذاته .. أحيانًا يستعين بهم ويشترى منهم المؤن .. لكنه كذلك يحاربهم ويغير على قراهم .. إنهم أعداء أعدائه لكنهم ليسوا أصدقاءه ..

كانت هناك خيول .. وكانت هناك رحلة عبر الصخور المكسوة بالثلوج .. لا تذكر عنها أية تفاصيل ..

وفى النهاية تجد نفسها فى معسكر الغاليين ..

* * *

لاحظت من النظرة الأولى أن طول هؤلاء فارع حقًا .. وفى طباعهم توتر واضطراب غير عاديين ..

الشعر طويل كأنه معرفة الجواد يتدلى على مؤخر العنق .. أما الشاربان فطويلان كثان .. يقول (ديودورو) الصقلى - وهو من أهم المؤرخين - إنهم كانوا يطيلون الشوارب لتصفية الحساء الذين يشربونه !

على الرءوس خوذات برونزية عملاقة لها قرون .. والدروع طويلة جدًا بارتفاع قاماتهم وفوق كل درع رأس حيوان .. أما الأعناق فتحيط بها سلاسل حديدية أقرب إلى الجنازير .. أما سيوفهم فمن طراز بتار لايصلح لأن يجرح أو يخيف .. يصلح فقط لحش الرقاب ..

هذا هو المشهد الذى رأته حول النيران ..

دخل زعيمهم الخيمة .. كيف عرفت أنه زعيمهم ؟ يا له من سؤال ! هذه الأمور تُحس ولا تُوصف .. ربما لأنه أضخمهم وربما لأن شاربيه هما الأكبر ..

كما هو المعتاد فى (فانتازيا) لم تكن اللغة الغالية تمثل أدنى مشكلة ..

لقد وقف يتأملها قليلاً .. ثم هتف فى دهشة :

ـ « فتاة ؟ فى جيش (هانيبال) ؟ »

قال أحد الرجال وهو يسلك أسنانه بخنجره :

ـ « لابد أن أمرها يهمه يا (سانكتوريوس) .. »

ـ « يهمه ؟ هم م م م ؟ »

ساد صمت ثقيل على حين اتجه (سانكتوريوس) إلى فخذ من اللحم النىء على منضدة من الخشب العتيق ، فاستل خنجرًا واقتطع منها شريحة دسها فى فيه .. سال الدم على ذقنه كمصاصى الدماء وهو يرمقها فى شرود ، ثم أمسك بدن كبير من النبيذ وأفرغه فى جوفه وتجشأ .. وقال :

ـ « إذن أريد أن تعنوا بها .. ستنام مع النساء ولايضربنها أحد .. إن (هانيبال) سيدفع لنا ثقلها فضة .. »

تنفست (عبير) الصعداء .. ستلعب دور الرهينة .. لا بأس أبدًا .. هذا أفضل مما تصورت ..

لكن هل يدفع (هانيبال) وزنها فضة حقًا ؟ إن الرجل عملى جدًا ولن يفسد حملته مهما كان يهواها .. ثم إنها ليست خفيفة الوزن ..

قال أحد الرجال ما كانت تخشاه :

ـ « وإن لم يدفع ؟ »

التمعت عيناه فى وحشية وقال :

ـ « عندها سنعرف إن كانت ستكون جارية لى أم جثة بلا رأس .. »

ـ « ولو هاجمنا (هانيبال) ؟ »

هنا ـ وبحركة سريعة كأنها لدغة الثعبان ـ هوى (سانكتوريوس) بالسيف على عنق سائله .. فتدحرج هذا مبتعدًا تاركًا جثمانًا بلا رأس .. لقد رأت (عبير) من قبل أنواعًا عدة من إبداء عدم الرضا أو التذمر ،

لكن هذا كان أكثرها بلاغة .. وتساءلت وهى توشك على فقدان الوعى : كيف يحتفظ هؤلاء القوم بتعدادهم ؟ إن بعض المناقشات الثقافية المحتدمة كهذه كل ليلة كفيلة بإفناء العشيرة كلها ..

دون كلمة أخرى أعاد (سانكتوريوس) السيف إلى غمده ، واقتطع قطعة أخرى من اللحم وعاد يقول فى هدوء :

- « نحن لا نخاف الموت .. كل غالى يعرف أنه لاموت هنالك .. إنما روحه تغادر جسده لتستقر فى جسد آخر .. »

وهكذا حملوا (عبير) حملاً إلى ما يشبه الكهف .. كانت هناك نساء والحقيقة أنهن كن بارعات الحسن .. لكن فيهن خشونة لا شك فيها .. وقد أدركت (عبير) أن بقاءها هنا سيكون عسيرًا ..

وكان أول ما قامت به النساء هو تجريدها من حليها ومن كل شىء ثمين معها ..

ثم دنت منها شقراء فارعة الطول من بينهن وسألتها فى تحد :

- « هل أنت قرطاجية ؟ لا أظن هذا .. »

قررت (عبير) أن تتظاهر بالغباء أو الخرس أو أى شىء ، لأنه لو عرفت هاته النسوة أنها رومانية فلربما ينقلب كل شىء على رأسها ..

لكن النسوة ظللن يرمقنها بشك .. وقدمن لها حساء يبدو أنه مصنوع من ذيول الثعالب .. ثم اصطنعن لها جبيرة بدائية لساقها المحطمة ، وفرشن لها بعض الفراء على الأرض وطلبن منها أن تنام ..

للمرة الأولى بدأت (عبير) تتساءل :

- « أين أنت يا (هانيبال) ؟ لماذا لا تفعل شيئًا يا أحمق ؟ »

* * *

ورد (هانيبال) كان فى الطريق ....

فى الصباح رأى الرجال جوادًا مقبلاً .. وخرجوا مسرعين يستقبلون صديقهم (سيلياتوبريكس) الذى أرسلوه بالرسالة إلى جيش (هانيبال) .. كان عائدًا وقد فرد ظهره على صهوة الجواد .. بدا كأنما يحمل أخبارًا طيبة بالفعل ..

ثم اقترب اكثر ..

هنا بدأ الرجال يشعرون بأن شيئًا ما ليس على ما يرام .. إنه لا يتحرك ..

ثم فهموا أخيرًا .. إنه ميت .. وطريقة قتله غريبة بعض الشىء لأن خازوقًا اخترق جسده كله من أسفل الظهر حتى الفم ، ثم ثبت طرف الخازوق المدبب بالحبال إلى صهوة الجواد .. وعلى طرف الخازوق الخارج من فمه ثبتت الرسالة ..

قال أحد الغاليين وهو يوقف الحصان :

ـ « أعتقد أن معنى هذا الرفض .. »

قال آخر فى غيظ :

ـ « لا يا أحمق .. بل هو يطلب مهلة للتفكير .. »

أما الكارثة الحقيقية فكانت عندما عرف (ساتكتوريوس) بالخبر .. لابد أنه أطار عنقين أو ثلاثة من أعناق من جاءوا يبلغونه .. ثم خرج إلى العراء وهو يزأر والدخان يخرج من منخريه كالتنين ..

ـ « القرطاجى الحقير يسخر منا ! »

قال أحد الرجال وقد اطمأن إلى أنه بعيد عن متناول سيف القائد :

ـ « إنها سخرية ثقيلة الظل نوعًا .. »

وقف القائد الغالى يخنفر ويقذف الثلج من حاجبيه .. ثم قال أول ما توقعه الجميع :

ـ « الأسيرة !! هاتوا الأسيرة ! سنكرر ما فعله ونعيد له الجواد ! »

وهكذا وجدت (عبير) نفسها تحمل حملاً بأذرع النساء القوية ، وهن يضحكن فى وحشية .. الحقيقة أن النساء أقسى من الرجال وأكثر قابلية للافتراس .. هى لم تؤذهن فى شىء ، لكنهن شغوفات برؤية مصرعها كما تشغف نساؤنا بمسلسل السابعة مساء ..

ـ « هاتوها هنا ! »

راحت (عبير) تولول وتحاول التملص لكن من الذى يستطيع التملص من قبضة النساء ؟

هنا ظهرت فى الأفق مجموعة ـ نحو خمسة ـ من فرسان الغال .. بخوذاتهم المميزة وشعورهم الطويلة ..

توقف الجميع .. ونظر (سانكتوريوس) إليهم محاولاً فهم من هم :

ـ « ربما كانوا من القرية المجاورة ؟ »

أخيرًا دنا الغاليون أكثر وكان رئيسهم أطولهم شعرًا وأضخمهم جسدًا وأطولهم قامة .. وكان له شاربان أشقران ينحدران حتى أعلى صدره ..

ـ « تحية يا (سانكتوريوس) .. »

ـ « تحية .. »

ـ « هذه الأسيرة ملك الغال جميعًا وليس من حقك أن تتلفها .. لربما عادت بالخير علينا .. »

فى عصبية لوح المذكور بسيفه وهتف :

ـ « هذه أسيرتى .. رجالى وجدوها .. ومن حقى أن أنكل بها كما أريد .. »

ـ « إن قوانين الغال أقوى منا معًا .. وأرى أن تدعونا للجلوس والكلام .. »

بدا شىء من التردد على (سانكتوريوس) ثم تراجع خطوة وقال :

ـ « ليكن .. لكن هذا لن يغير شيئًا .. »

ودنا من الحصان ورفع رأسه نحو الغالى المهيب :

ـ « ولكن من أنتم ؟ »

كان الرد سريعًا جدًا لأن عنقه طار فى الهواء بينما لسانه ما زال يلفظ حرف (التاء) فى (أنتم) ..

وعلى الفور اندفع القادمون وسط الغاليين الذين كهربهم الموقف فوقفوا فى غباء .. وانهالت الفئوس يمينًا ويسارًا مع السيوف .. وبدا كأن قنبلة يدوية ألقيت وسط معسكر الغال .. ومن مكان ما خرجت شعلة ملتهبة هوت على الخيام فاشتعلت ..

وشعرت (عبير) بيد قوية تحملها على سرج حصان .. هذا غير آدمى ! إنها تعامل كجوال من القمح هنا .. لكنها رفعت عينيها فرأت أن الجمة والشارب سقطا عن وجه خاطفها .. هذه الملامح السمراء القوية .. إنه (هانيبال) ! لقد جاء بنفسه !

بالمثل كان التنكر قد سقط عن أكثر الرجال فعرفتهم واحدًا واحدًا ..

إنه لم يتخل عنها ..

الخيول تبعثر الجليد .. والجليد يبدو كأن شحنة من علب الصلصة قد أفرغت فوقه .. والنار تشتعل .. والنساء تصرخ .. والأجساد تهوى ..

فى النهاية رفع (هانيبال) سيفه وصرخ :

ـ « لنعد يا رجاااااال ! »

واستدارت الخيول الهادرة مبتعدة تبعثر الوغى والمنون فى كل صوب ..

وقدرت (عبير) أنه لو ظل هؤلاء الشجعان ساعة أخرى لأبيد جنس الغال من على وجه الأرض ..

لم تحب هذه المذبحة ..

لكنها لم تحب كذلك ما كان سيحدث لو لم يأت (هانيبال) ..

* * *



ثم اتجه إلى خيمة القيادة .. وأنزل أسيرته الحسناء التى راحت تثب على ساقها الوحيدة كاللقلق ..

6 ـ روما تتحرك ..

كان جيش (هانيبال) يحتشد فى وادى نهر (البو) ..

فلما رأى الرجال قائدهم .. تصايحوا وطارت الأسلحة فى الهواء ..

ـ « هانيبااااال ! هانيبااااااااال !! »

كانوا يعرفون أنه سيعود .. كانوا يؤمنون أنه لا يُقهر .. هذه هى اللمسة السحرية التى جعلته يحكم قبضته على هذا الخليط غير المتجانس من البشر ..

لوح بسلاحه فى الهواء ، ثم اتجه إلى خيمة القيادة .. وأنزل أسيرته الحسناء التى راحت تثب على ساقها الوحيدة كاللقلق .. واقتادها إلى الداخل ..

ـ « أغبياء ! »

قالها وهو ينزع الثياب المستعارة التى كانت تثقل جسمه .. أخيرًا يقف بالثياب المريحة القرطاجية : دروع ودروع ثم دروع .. جميل أن يشعر المرء بالتخفف قليلاً ..

ـ « أغبياء ! » ـ كررها من جديد وأردف ـ « هؤلاء الغال أغبياء .. هل كانوا يتوقعون أن نعيد رسولهم ولا نقتفى أثر الحصان ؟ لولا هذا الحصان الذكى الذى نعرف طريقه لاستحال علينا العثور عليك بين كل قرى الغال هذه .. »

ثم نظر لها فى صلابة وسألها :

ـ « للمرة الثانية أتساءل : هل تكونين زوجتى ؟ »

صمتت .. كانت بعد مزعزعة من المغامرة الأخيرة ، ثم إنها لم تتوقع هذا السؤال .. ومن جديد تشعر بأنها لن تستطيع أبدًا .. تعجب به نعم .. تتزوجه لا .. إنها تخشاه بشدة وهذه ليست البداية المثلى لزواج ناجح ..

دعك طبعًا من أنها لن تقبل عرضًا بالزواج من رجل أطار عشرة أعناق منذ ربع ساعة .. ويعلم اللّه أنه فعلها بنفس البساطة التى تنتزع بها أنت عنق الروبيان (الجمبرى) لو استطعت شراءه ..

قال فى ضيق :

ـ « ليكن .. ذات الإجابة إذن .. لكنى أحتفظ بالحق فى سؤالين .. »

كانت تشعر بالخجل من نفسها .. هذا هو نكران الجميل الحق لكن هل تتزوج المرأة من كل من ينقذ حياتها ؟ ثم من طلب منه أن يأسرها ومن طلب منه أن يصطحبها فى أخطر حملة فى التاريخ ؟؟؟

ثم وضع يديه فى خصره وقال بحزم :

ـ « يمكنك العودة إلى خيمتك .. نحن لن نزحف اليوم .. لكننا سنواصل القتال غدًا .. »

والحق أنها حين غادرت خيمته ومشت بعكازها

وسط الجنود ، أدركت مدى ما كلفه الزحف الرهيب عبر الألب .. أكثر الجنود معوقون بشكل ما .. وأكثر الأفيال ماتت من البرد .. لم يعد للجيش ذات الهيبة الأولى ، وهو ما كان (هانيبال) يدركه جيدًا لهذا وقف هذه الوقفة التعبوية من أجل ضم من يستطيع من الغاليين أعداء روما ..

كما قلنا كانت علاقته بالغال شديدة التعقيد ..

أما رسالته للجيش فكانت شبيهة برسالة (طارق ابن زياد) بعد هذا بقرون ..

لقد دعا القوات إلى التجمع .. وفى وسط المكان وقف أسيران من الغال يبدو عليهما النبل والقوة ... أسدان أسيران لو كنت تفضل هذا النوع من التشبيهات ..

وقف (هانيبال) على مرتفع .. مهيبًا ضخمًا ثابتًا كالجبل ..

وصاح بأعلى صوته :

- « هاتوا السلاح والدروع !! »

أحضر رجالهُ مجموعة من الأسلحة والدروع المزدانة بالذهب وألقوا بها أمام الرجلين ..

- « سيتقاتل هذان النبيلان الغالبان حتى الموت .. فمن يفز بالمباراة يظفر بحريته وكل هذه الأسلحة .. »

وهكذا وقف الغالبان وكل منهما يزن الآخر بعينيه ..

ثم كان القتال المروع الذى يمكن أن تراه فقط فى كوابيسك لو التهمت وجبة دسمة ونمت على ظهرك .. هذه أشياء لاتوصف بل تُرى .. الواقع أن الرجلين لم يكونا يمثلان أو يرفق أحدهما بصاحبه .. كانا مصممين على أن يرى هؤلاء الأفارقة شجاعتهم وصلابتهم ..

كلينج .. كلانج .. كلونج .. كلانك .. كلينج .. شليك .. شلوك .. شلانك !

ثم سقط أحد البطلين على الأرض ممرغًا فى مزيج من الوحل والدم والثلج ..

لوح المنتصر بسلاحه فى الهواء .. فلوح له (هانيبال) بسلاحه .. الحقيقة أنه كان ضعيفًا دومًا أمام الشجاعة والنبل .. فى حين لم يكن يطيق الجبن ..

ثم إن (هانيبال) صاح فى رجاله :

ـ « هل فهمتم الدرس ؟ نحن كهذين الغاليين .. ليس أمامنا إلا أن نسحق روما ونفوز بكل ثمين .. أو نهلك جميعًا .. »

هنا ارتفعت الأسلحة فى الهواء من جديد :

ـ « (هانيبااااااااال) .. (هانيبااااااااال) ! »

* * *

كان المستشار الرومانى (سكيبيو) الأكبر ينتظر ..

لم يكن متوترًا ولم يجف ريقه .. لقد اختار (هانيبال) هذا الطريق وبالتالى صار مسئوليته هو ..

الواقع أن الرومان وزعوا المسئوليات بينهم حسب اتجاه جيش (هانيبال) ، ما بين المستشار (سكيبيو) الأكبر والقائد (جايوس فلامينيوس) والجنرال ـ لحظة حتى أنسخ الاسم من الفصل الرابع ـ (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور) .. مع جزيل شكرى لشركة (ميكروسوفت) ..

صارت المهمة مهمة (سكيبيو) الأكبر ..

وقد وقف يقول لجنوده :

ـ « عبور الألب ليس معجزة .. »

ومط شفته السفلى احتقارًا وأردف :

ـ « بالواقع هذا المجنون القرطاجى قد وضع جيشه فى حالة لا يمكن معها التراجع .. وقد فقد نصف رجاله وكل الأفيال التى حاول بها أن يفقدنا روعنا .. إننا محظوظون بحقّ ! »

لكن بالتأكيد كان (هانيبال) أكثر توترًا وعصبية ..

الحقيقة أن قوة جيشه ضعفت كثيرًا ، بالإضافة إلى أن خطوط الاتصال انقطعت بينه وبين (إسبانيا) .. حتى الحمام الزاجل كان الرومان يقتنصونه ويشوونه .. وكان احتياطيه الاستراتيجى قد نضب فعلاً .. أما الرومان فكانوا قادرين على استدعاء نحو مليون جندى من الاحتياطى ..

وفوق ذلك الشاطئ الممتد .. شط (تيشينو) ، ظهر الجيش الرومانى للمرة الأولى ...

وجاءت لحظة الحقيقة ..

إن الموقعة التالية سيذكرها التاريخ باسم .. نعم .. أنتم عباقرة فعلاً .. سيكون اسمها موقعة (تشينو) ..

★ ★ ★

من موقعها فوق الفيل الأخير الذى تركوه لها ، كان بوسع (عبير) أن تراقب مجريات المعركة فى هدوء ملحوظ .. لو فاز (هانيبال) فلن يتغير شىء ، وإن فاز الرومان عادت إلى قومها !

كان (هانيبال) يركب حصانه وجواره مجموعة (المخابرات العسكرية) الخاصة به .. ورئيس مخابراته هو (كارثالو) الذى راح يشرح له معنى كل تحرك للرومان ، ومعنى كل نداء بالبوق ..

قال له (كارثالو) :

ـ « النظام .. النظام هو ما يميز الجيش الرومانى .. إنه يعمل كآلة لا تعطب .. كل شىء يتم بدقة .. »

ابتسم (هانيبال) فى وحشية وقال :

ـ « هذا النوع من الجيوش يهزم بسرعة إذا وضع فى وضع غير تقليدى .. إن جنوده لا يفعلون إلا ما تدربوا عليه ولا يرتجلون أبدًا .. »

القوات الرومانية تتقدم بأسلوب المربعات الشهير .. نظام محكم يثير الغيظ فى النفوس والرهبة فى القلوب .. مثل هذه التشكيلات أوقعت الهلع فى قلوب كثيرين من قبل ، وقد ارتجف العبيد على شاطئ

(برنديزى) تحت قيادة (سبارتاكوس) يوم وقفوا يشاهدون هذه الاستعراضات المخيفة التى دامت ساعات قبل الالتحام .. الحق أن روما كانت قوية جدًا ..

- «غانع !! بغافووووو !»

سمعت هذه العبارة فالتفتت لترى الأخ (بونابرت) واقفًا جوارها وهو يدون فى مفكرته بعض الملحوظات ..

قالت له فى ضيق :

- «ظننت أنك معجب بالقرطاجيين فقط .. »

- «لنقل إننى أشجع اللعبة الحلوة .. إن لدينا هنا منهلاً من الأفكار الاستراتيجية لاينضب .. هذه المربعات التى لايمكن اختراقها ستحير أعدائى .. يومًا ما سيفاجأ المماليك بها فى معركة (امبابة) فى مصر وطنك .. ولن يفهموا كيف يمكن اختراقها .. »

تقدم الرومان نحو جيش القرطاجيين المبعثر .. فبدأ هذا يتراجع من القلب ..

هنا ـ كأنما بفعل ساحر ـ برزت من الجانبين قوات الفرسان البرابرة .. وأطبقوا من الميمنة والميسرة على الجيش الرومانى حتى أوشكوا على إغلاق الدائرة ..

وهنا ظهرت من المؤخرة قوات النوميديين لتهاجم مؤخرة الجيش الرومانى .. وكانت لهم طريقة معروفة فى الهجوم ، هى أنهم لا يضيعون الوقت فى المبارزة .. بل يسددون بالسيف ضربة إلى مؤخرة الفخذ تقطع كل الأوتار .. من ثم يتهاوى الجندى الرومانى على الأرض كأنه دمية انقطع خيطها .. ويتركونه ليبحثوا عن واحد آخر ..

وسرعان ما تكوم الرومان وهم يصرخون طالبين من يغيثهم .. من يرحمهم بالقتل .. لكن أحدًا لم يكن رائق المزاج لقتلهم .. لقد تم تعطيلهم وهذا كاف ..

وكان (هانيبال) فى مقدمة الصفوف يهدر كالرعد ، وكانت الضربة من فأسه ذى الحدين تسقط عشرة فى كل مرة ..

وكانت الضربة الأعنف حين سقط المستشار جريحًا من فوق فرسه ..

هكذا راح الرومان يتقهقرون وهم يصرخون فى بعضهم أن أوان الانسحاب قد جاء ..

هتف (بونابرت) وهو يرسم شكل الجيوش فى مفكرته :

ـ « هل رأيت ؟ تكتيك تراجع القلب وتقدم الجناحين هذا ؟ »

قالت فى ملل :

ـ « لست ذات خبرة استراتيجية ، لكنى فى وصف كل معركة فى التاريخ أسمع عبارة : تراجع القلب بينما تقدمت الميمنة والميسرة فى شكل

هلال لتطبقا على العدو .. أحيانًا أعتقد أن هذا كان التكتيك الوحيد وأن أى قائد لايفطن له هو حمار .. »

ضحك كثيرًا ثم قال :

ـ « لكن (هانيبال) كان الأول .. لقد كتب (ويلز) عن آلة الزمن ، وبعده كتب المئات عنها .. لو قرأت (آلة الزمن) فى وقت متأخر واتهمت (ويلز) بالنمطية والتقليد لكان ظلمك فادحًا .. كثير من القصص تحكى عن مجموعة صبية كونوا فريقًا لحل الجرائم .. لكن لاتقرئى (المغامرون الخمسة) ثم تقولى إن (محمود سالم) نمطى .. لا من فضلك .. لقد كان (محمود سالم) أول من ابتكر هذا الطراز من القصص فى العربية .. هذه التكتيكات مورست مرارًا بعد هذا ، لكن ابتكارها يعود لـ (هانيبال) .. »

لم ترد وراحت تراقب المعركة التى بدأت أحداثها تنتهى سريعًا ..

الرومان يفرون إلى معسكرهم ..

وارتفعت صيحات الفرح تهتف باسم (هانيبال) الذى لا يقهر ..

أما الأهم فكانت صرخات الأهالى الذين لم يتصوروا لحظة أن يروا هزيمة الرومان ..

لقد رفع هذا النصر أسهم القرطاجيين كثيرًا جدًا ...

★ ★ ★

7 ـ روما تتحرك ..

(لماذا أشعر بأننى كررت العنوان ؟)

الموقعة الثانية كانت عند نهر (تريبيا) ..

هذه المرة كان الرومان قد أرسلوا القائد (تيباريوس سيمبرونيوس) كى يقود الجيش بدلاً من (سكيبيو) المريض .. والحقيقة أن (سيمبرونيوس) كان ينتمى بكل جوارحه إلى تلك القبيلة الواسعة التى تدعى بالحمقى .. كان أحمق مغرورًا ولهذا لم يفهم ما يحدث ..

وكان (هانيبال) قد درس كل شىء عن معسكر الرومان ودار حوله بنفسه ..

وفى اليوم المحدد بدأ رجاله يستعدون ..

كانت الأمطار تنهمر محيلة المنطقة إلى أوحال

مستحيلة بالنسبة للقوات النظامية ، بينما التهم رجال (هانيبال) وجبة دسمة من اللحم المسلوق وحساء الشعير ..

هذه الخطوة مهمة لأنهم لن يأكلوا شيئًا فى الغد بطوله ..

ثم دهنوا أجسادهم بالزيت .. هكذا لم يعد البرد يؤثر فيهم ..

على حين كان جنود الرومان يرتجفون من البرد بثيابهم الخفيفة .. وكان عليهم أن يخوضوا المعارك طيلة الليل وطيلة النهار دون أن يأكلوا شيئًا ..

قال (بونابرت) الذى صار ملازمًا لـ (عبير) تقريبًا :

ـ « الجيوش تزحف على بطونها .. سأقول يومًا ما هذه الحكمة .. »

كانت تتمنى الخلاص منه لكنها وجدت أنه يلعب

دور المفسر إلى حد ما .. مثله مثل (هوميروس) الذى يلازمها فى الأساطير الإغريقية .. دعه يبق معها فهو يعرف ما يحدث .. خاصة أنها لم تفهم فيلمًا حربيًا فى حياتها وكانت تخلط على الفور بين الحلفاء والنازيين ، ولا تعرف من يضرب من ...

الحقيقة أن تقنيات القرطاجيين الحربية كانت لا تتوقف أبدًا .. كانوا يعبرون المستنقعات عن طريق تشييد قناطر من القوارب الصغيرة المتلاصقة ، فإذا عبروا فكوا القناطر وحملوها معهم .. بهذا ابتكروا الجسور السوفييتية قبل أن نعرفها بقرون ..

على كل حال كانت المذبحة واضحة ..

إبادة شبه كاملة . وقد راح الرومان يفرون وسط الأوحال الزلقة ..

وفيما بعد كتب (سيمبرونيوس) إلى روما يقول إن سوء الظروف الجوية كان سبب هزيمته .. وهو بهذا يقلد مدربى كرة القدم الذين يفسرون هزائمنا فى المباريات بأن « الهواء كان ضدنا فى الشوطين » ..

وعلى معسكر القرطاجيين توافدت أفواج الأسرى ..

وكان أول ما قام به (هانيبال) هو فرز الأسرى ، فمن كان رومانيًا بقى ومن لم يكن رومانيًا أو كان من الغال الذين انضموا للرومان ، فكان يطلق سراحه ..

ـ « عودوا لدياركم وقولوا لأهلكم إن (هانيبال) لايريد أن يؤذيكم .. إن عدوه الوحيد هو (روما) .. »

وهى حركة ذكية لاتخفى على أحد ..

* * *

المكان : روما ..

الزمان : فى هذه الأثناء طبعًا ..

الحدث : وهل هناك موضوع آخر ؟ إن القادة الرومان يناقشون نوايا (هانيبال) ...

كانت روما فى حالة عصبية عنيفة .. الشوارع تزدحم بالنساء الصارخات اللاتى يأتين لاتدرى من أين .. لكنهن

هناك دومًا .. لقد رأى الأقدمون أشباح سفن تعبر السماء .. وضرب البرق المعبد .. واشتعلت الرماح فى معبد (مارس) .. واصطبغت مياه نهر (كيرى) بالدم ..

فى أجواء كهذه يجد كهنة (زيوس) أكل عيشهم .. هذا وقتهم ..

ـ « إن (زيوس) غاضب ويطالب بالقرابين .. »

ومن كل موضع فى البلاد تصل الحيوانات الصغيرة التى ستذبح عند قدمى صنم (زيوس) العملاق .. بل إن بعض العباقرة قرروا صنع تمثال هائل له من الذهب كى يهدأ قليلاً .. هكذا فى هذا الوقت الذى تحتاج البلاد فيه إلى كل مليم ..

كان الرومان الآن قد كونوا نظريتهم الخاصة ..

أولاً (هانيبال) هذا خارق للطبيعة ولايمكن القضاء عليه .. إنه شىء قدرى جاء يذيق الرومان الويل بسبب جرائمهم وتفشى الفساد فيهم ..

ثانيًا يبدو أن (بعل) أقوى من (زيوس) بمراحل .. ربما كان (زيوس) مغشوشًا أو (مضروبًا) بشكل ما ..

وفى مجلس الشيوخ كان المشهد أقرب إلى مسرحية من مسرحيات (سوفوكليس) .. الكل يصرخ والجوقة تهدر ، والاتهامات تطير ذات اليمين وذات اليسار ..

قال (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور) :

ـ « تلك الفتاة الرومانية التى يحبها (هانيبال) .. هذه هى ورقتنا الرابحة الوحيدة .. لابد من الوصول إليها .. »

قال أحد القواد فى تهكم :

ـ « وعدتنا أنك ستحاول .. »

ـ « ومازلت .. إن مشكلة هذا المجلس هى التسرع والاندفاع .. »

قال قائد آخر :

ـ « فقط أرجو أن نجد حلاً قبل أن نجد (هانيبال) جالسًا يشاركنا التفكير هنا .. »

فى هدوء عقد (فابيوس) ذراعيه وقال :

ـ « بعض الهدوء .. هذا ما أريده .. »

* * *

ـ « الآن تزحف جيوش (هانيبال) نحو روما عبر سلسلة جبال (الأبيتاين) .. »

كالعادة يبدو أن لدى (هانيبال) ولعًا خاصًا باستخدام الطرق الصعبة غير المنطقية .. وهو يؤمن أن أقصر طريق بين نقطتين ليس هو الخط المستقيم بل الخط المتعرج أو المنحنى أو المتكسر أو المقوس أو الملتوى ..

هكذا كان عبور المستنقعات هو المرحلة الأخطر والأصعب ..

وأصيب أكثر الجنود بحمى المستنقعات .. بينما مرضت الدواب .. وكان الجندى يمشى وهو نائم فعلاً يغط بصوت عال ..

وكان أغرب ما حدث هو يوم فوجئت (عبير) فى هودجها بمن يدق على الستائر ..

وجدت قائدين من القرطاجيين قد تسلقا إلى هناك فوق ظهر الفيل ، وقال لها أحدهما فى شىء من الخجل :

ـ « معذرة .. هل يضايقك كثيرًا أن تركبى حصانًا ؟ »

نظرت إلى المستنقعات تحت وإلى كل هذا الوحل ، وللمرة الأولى شعرت بسرور بالغ لأنها تركب فيلاً .. وفى ضيق قالت :

ـ « لماذا ؟؟ هل صار هذا الفيل ضروريًا لهزيمة روما ؟ »

ـ « تقريبًا .. إن (هانيبال) مريض ولم يعد يحتمل الخيول .. »

(هانيبال) مريض ؟ هذا الرجل يمرض كالبشر ؟ إذن فهزيمة هذا الجيش ممكنة .. طبعًا كانت لفتة

لاتخلو من التهذيب .. ولهذا ترجلت نازلة من الهودج بينما الرجال يحملون العملاق حملاً إلى الهودج .. الحق أنها لم تره قط فى حالة كهذه .. كانت عيناه حمراوين كالدم وفمه مغطى بقشرة بيضاء .. ولكنه لم يهلوس لحسن الحظ ..

قال لها وهو يرتفع إلى أعلى :

ـ « تعالى إلى أعلى .. هناك ما أقوله لك .. »

لحقت به فى الهودج ، حيث كان قد رقد وهو يلهث ويسعل .. وبما أنها رقيقة المشاعر كان سؤالها الأول :

ـ « هل ستموت الآن ؟ »

نظر لها فى حيرة كأنما لم يخطر له هذا الأمر من قبل ، ثم هز رأسه وقال :

ـ « لا أظن .. من الصعب أن يموت (هانيبال) .. إن لدى من الأعباء ما يجعلنى لا أجد وقتًا للموت ذاته .. »

ثم أردف وهو يريح رأسه :

- « أريد أن تقومى أنت بتمريضى .. »

لم تدر مدى سوء الحالة إلا حين قربت من فمه وعاء الشرب فلاحظت أنه لايراه .. ثم أدركت أن عينه اليسرى لاترى فعلاً .. لقد أتلفت الحمى إحدى عينيه ..

لكنه لم يقل شيئًا ، ولابد أنه كان فى أسوأ حالاته النفسية لأن (سعادة بعل) يكره أن يراه أحدهم ضعيفًا .. ثم أغمض عينيه .. لقد كان مرهقًا مرهقًا ..

فجأة فتح عينه وسألها فى حزم :

- « هل تقبلين الزواج منى ؟ »

قالت فى حزم مماثل :

- « لا .. »

- « إذن سأسألك بعد أيام مرة أخيرة .. بعدها أنت زوجتى أو حرة .. »



لم تدر مدى سوء الحالة إلا حين قرّبت من فمه وعاء الشرب فلاحظت أنه لا يراه ..

ثم أغمض عينيه من جديد ..

وفى الخارج رأى الجنود للمرة الأولى واديًا رائع الجمال تكسوه الخضرة .. هذا المكان لم يسمع قط أن هناك حروبًا تحدث فى العالم .. لم يسمع عن الدماء والصراخ وقراع السيوف ..

كان اسم هذا الوادى (فوسيولى) وإن اختار له الجند اسم (وادى النور) ..

* * *

الآن صار (هانيبال) - منذ أن دخل وادى النور - فى نطاق عمل القائد (جايوس فلامنيوس) ..

يحكى التاريخ عن مناورة معقدة عسيرة الفهم قام بها (هانيبال) لخداع هذا القائد .. الواقع أننى لا أستطيع تحويل هذا الكتيب إلى كتاب فى الاستراتيجية ، لكن الأخ (بونابرت) كتب الكثير جدًا حتى إن يده اليمنى تورمت ..

الخلاصة أن هذه كانت موقعة (ترازيمين) ، وقد أوشك فيها (هانيبال) على إبادة الرومان تمامًا ..

لقد استغل الموقع الوعر والضباب خير استغلال .. والحقيقة أن جنود (هانيبال) كانوا فرسانًا ، بينما كان الرومان جنودًا يركبون الخيول .. وكان القتال مع الغاليين معروف العواقب من البداية لأنهم أشرس المقاتلين طرًا . والحقيقة أن كثيرًا جدًا من الرومان فقدوا أوتار أفخاذهم كما هى العادة المحببة لدى القرطاجيين .. وهكذا سقطوا على الأرض يولولون ويتوسلون كأنهم طيور تهشم جناحاها ..

لقد استعاد (هانيبال) معنوياته وللمرة الأولى يعود إلى حصانه . وسرت (عبير) بهذا لأنه كان يزحم المكان حقًا .. مات ألفا قرطاجى بينما أبيد الجيش الرومانى وأسر خمسة عشر ألفًا من الجنود الأشداء ..

لكن (هانيبال) ليس بالقائد الذى ينسى التفاصيل ..

لقد راح يفتش مع رجاله عن جثة (فلامنيوس) ..

- « أريد أن تجدوها .. وأن تدفن مع أسلحتها مع مراسم تكريم .. »

قال أحد رجاله فى غيظ :

- « لكنه كلب رومانى .. »

- « هو كذلك قائد حارب مع جنوده ومات ممسكًا سيفه .. إنه خصم شجاع شريف يستحق التكريم .. »

لكن أحدًا لم يجد القائد على كل حال .. وهذا من حسن حظ الغالبين الذين لم يتحملوا قط أساليب (الجنتلمانات) هذه .. اعتبروها نوعًا من النفاق السياسى .. الحرب المحترمة بالنسبة لهم هى التى يتم فيها تمزيق الخصم والتمثيل بجثته وإلقاؤها للكلاب .. لِمَ لا ؟ ألم يكن هذا هو الهدف من الحرب أصلاً ؟

وفى روما أوصدت أبواب مجلس الشيوخ أمام الجماهير لعدة ساعات كأنها نتيجة الثانوية العامة ، ثم خرج (بومبونيوس ماثو) إليهم .. كان له وجه مشرق مفعم بالأمل .. وابتسامة آسرة ..

- « يا أهالى روما الكرام ! »

هنا حبس الناس أنفاسهم حتى لا يفوتهم حرف ..

فأردف الرجل بوجهه المشرق الصبوح :

- « لقد هزمت جيوشنا فى موقعة عظيمة مع (هانيبال) .. »

ثم لوح بيده فى الهواء وهتف فى حماسة :

- « لقد مات المستشار (جايوس فلامنيوس) !! »

الحقيقة أن البلهاء سعداء الحظ فعلاً .. وبمعجزة ما لم تفتك الجماهير بهذا المتفائل السعيد ..

وهكذا اجتمع مجلس الشيوخ من جديد ، وكان القرار الذى صدر هو تعيين (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور) - شكرًا لميكروسوفت - كى يقود البلاد .. بل ليكون حاكمًا مطلقًا ..

وكان أول قرار أصدره هو كما نتوقع :

- « يجب أن نهدأ قليلاً .. لاداعى للانفعالات أو العجلة .. »

ثم أضاف فى خبث :

- « كل يوم يمر على (هانيبال) يضعفه ويقلل من مؤنه .. بينما الوقت معنا .. يجب أن نصمد .. يجب .. »

* * *

8- روما تتحرك ..

(هذه المرة أنا متأكد من أن العنوان مكرر)

كانت (عبير) تجول خلف الخيام لبعض أغراضها .. الحقيقة أنها لاتجد شيئًا من الحرية وهى محاصرة ووحيدة وسط هذا الجيش من الرجال الأشداء ، لكنهم على الأقل كانوا يعرفون أنها تحمل خاتم (هانيبال) وأنها مقدسة لايمكن لمسها .. هذا كان يعطيها نوعًا من الاحترام والحصانة .. وفى جولات كهذه كان الحراس يستنتجون ماتريد ويكفون عن مراقبتها ..

لابد أنها دنت أكثر من اللازم من الحفرة ..

فى هذه الحفرة كان الأسرى الرومان .. حفرة عميقة هى يجلسون فيها مربوطين بالسلاسل والحبال

الغليظة التي لايمكن قضمهـا .. والحقيقـة أنهم كـانوا يمثلون عبئًا متزايدًا على المؤن ، لكـن (هانيبـال) لـم يحب فكرة إبادتهم .. صحيح أن تصرفاته كانت تـزداد وحشية هذه الأيام كلما اقترب من رومـا ، لكن ليس إلى درجة قتل الأسرى ..

كان قد بدأ يحرق الأراضى ويقتـل الرجـال فى سن الحرب فى القرى التـى يدخلها .. والخلاصة أن كراهيتـه لروما بدأت تتضح يومًا بعد يوم .. واتخذت شكلاً أكثر شراسة يتوارى خلفه الجنتلمان ..

سمعت (عبير) من يناديها من الحفرة فألقت نظـرة فضول :

ـ « هييه .. برسيفون ! »

تلفتت حولها فى رعب ثم دنت من الحفرة أكثر ..

كان هناك نحو عشرة رومانيين مربوطين بسلاسل غليظة تحيط بالعنق فالذراعين فى نوع من التوصيل علـى التوازى الذى يبهر أى كهربائى فى عصرنا هذا ..

وكان المتكلم فتى شابًا منهم .. لايبدو ذا باع كبير فى الحرب .. كـانت لـه عينـا طفل واسعتان خائفتـان صادقتان ..

سألته فى حدة :

ـ « كـ .. كيف عرفت اسمى ؟ »

ـ « كل روما تعرف أمر الفتاة التـى ترافق (هانيبـال) فى حملاته .. »

ثم ثنى معصمه بالسلسلة .. وهوب ! فى اللحظة التالية طـارت القنينة الصغيرة لتسقط فى يدها قبل أن تعـرف ما هى ..

ـ « قطرتان فى طعام (هانيبال) .. هذا ما نريد .. »

صاحت فى جزع وهى تشعر بأنها تمسك ثعبانًا :

ـ « لحظة .. هذا غير ممكن .. من قال إننـى أجرؤ على ؟؟ »

ـ « الأمر سهل .. كل امرأة قاتلة بالسم بالفطرة .. بالسليقة .. ثم لاتنسى أن هـذه المحـاولة ستنقذ رومـا ..

تذكرى قومك وأباك وأمك .. تذكرى وجوه النساء الدامعة والثكالى والأرامل .. تذكرى الأيتام والأطفال الذين لن يروا النور لأنهم فقدوا البصر .. تذكرى كل من سيموتون فى الأعوام القادمة .. »

– « هل كنت تقاتل بقنينة سم ؟ »

– « أنا لست جنديًا أصلاً . أرسلنى المستشار (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور) عالمًا أننى سأسقط فى الأسر .. وربما استطعت تسليمك هذه .. »

هنا صاح جندى رومانى فظ :

– « قد عرفت كل شىء .. الآن ابتعدى قبل أن يراك أحد وفكرى بعيدًا عنا !! »

هكذا ابتعدت (عبير) وهى ترتجف ..

من العبقرى الذى قال : يكاد المريب أن يقول خذونى ؟ لقد صار بوسع كل من فى المعسكر أن يرى على

وجهها عبارة : أنا أحمل زجاجة سم .. وتذكرت النكتة العبقرية القديمة عن الرجل الذى حمل جنيهًا وذهب ليشترى حشيشًا ، فلما رأى رجل الشرطة ألقى بالجنيه أرضًا وجرى ! إنه شعر بأن الجنيه ملوث مثير للشكوك بما يكفى !

هى بحاجة إلى أن تهدأ .. تهدأ ..

المشكلة التى لايفهمها هؤلاء القوم أنها لاتحمل أى ولاء نحو روما .. يتكلمون عن أمها وأبيها وهى لم ترهما قط .. هى بالعكس تشعر براحة أكثر وألفة أكثر لمعسكر (هانيبال) ..

حتى اللحظة لم يظهر (هانيبال) غير مايقول إنه جندى نبيل جدير بالمجد ..

وقررت أن تخفى القنينة فى مكان حصين ، وأن تنتظر كيف تتطور الأحداث ..

* * *

مرت فترة من الهدوء الحذر ..

انشغل (هانيبال) بتدريب جنده على حيل حربية جديدة لايعرفها الرومان .. إن جعبته كانت مليئة بها .. والخبر الطيب هنا أن (قرطاجة) أرسلت له سبعين سفينة لحقت به عند نهر (الأدرياتيك) ..

ولم يكن يضيع وقته فقد أرسل على ملك اليونان يطلب أن يتحالف معه ضد (روما) ، كما أرسل عملاءه السريين إلى (سيراكوزا) معقل (صقلية) .. كان يريد أن يضيق الخناق على (روما) قبل أن يزحف إليها ..

أما المستشار (فابيوس) فكان مشغولاً بالخطة الاستراتيجية التى عرفها التاريخ باسمه منذ ذلك الحين : ألا يفعل أى شىء على الإطلاق ..

فقط يترقب ويتفادى المواجهة .. ربما ينفذ هجمة استنزاف من حين لآخر لكنه لايشتبك أبدًا ولايرى (هانيبال) ما فى جعبته ، وكانت هذه السياسة فعالة

بالفعل مع جيش مقطوع عن خطوطه الخلفية فى إسبانيا وقرطاجة .. جيش يعانى نقص الإمدادات .. والوقت هو عدوه الحقيقى ..

لكن القواد لم يفهموا هذه السياسة ، وأطلقوا على (فابيوس) الاسم الذى سيشتهر به فى التاريخ : المعرقل ..

قال لها (نابليون) فى حماسة :

- « هل ترين ؟ هذه هى الاستراتيجية الفابية الحقة .. »

قالت فى غيظ :

- « أية استراتيجية ؟ يمكن لهذا الوضع أن يدوم للأبد .. »

- « بالضبط ! الأبد .. هذه هى اللفظة التى يخشاها (هانيبال) ويعتقد (فابيوس) أنها المنقذ الوحيد لـ (روما) .. هاتى جنرالاً متحمسًا من الحمقى الذين يملئون (روما) الآن ، ولسوف يلتهمه (هانيبال) كقطعة

من البسكويت .. لكن (فابيوس) يلعب لعبة مستفزة بارعة ..»

والحقيقة أن (هانيبال) كان يمشى إلى مأزق دون أن يعرف ..

فى ذلك اليوم الأسود استدعى رجاله أحد الأدلة من القبائل الإيطالية وقالوا له :

ـ « قدنا إلى وادى (كاسينوم) .. »

كان الرجل بادى الذكاء تلتمع عيناه فهمًا .. لكنى أعتقد أنه كان كذلك ألثغ أو ربما افترض أن القرطاجيين جميعًا يعانون من لثغة ..

ـ « ليكن أيها الجنيال العظيم .. ستيون أننا نعيف كل شىء هنا .. »

وانطلق الجيش القرطاجى الرهيب بكل فرسانه وعتاده وخيوله وراء الفلاح الإيطالى الذى سرته أهميته .. فليس متاحًا لكل واحد أن يقود جيش (هانيبال) إلى وجهته ..

يمضى الركب وسط وديان ومنحدرات .. رحلة شاقة جدًا ..

فى النهاية يقف الأخ المرشد فى واد غير ذى زرع ، تحيط به الجبال من كل الجهات ويقول فى حماسة ، وهو يجفف العرق المحتشد على جبينه :

ـ « هذا هو وادى (كاسيلينيوم) ياسادة ! »

اقترب منه (هانيبال) ونظر له طويلاً بعينه الوحيدة المبصرة ، ثم قال :

ـ « وادى (كاسيلينيوم) ؟ من تحدث عن وادى (كاسيلينيوم) ؟ طلبنا منك وادى (كاسينوم) »

هنا بدأ الرجل يتلعثم .. المشكلة أن هؤلاء الإيطاليين يستعملون أسماء متشابهة ، وهؤلاء القرطاجيين لايجيدون النطق السليم .. و ...

ـ « أنت جلبتنا كل هذه المسافة لأنك سمعت الاسم خطأ ؟! »

طبعًا لم يكن الأمر فى سهولة أن تركب إلى (السنطة)

وأنت تقصد (طنطا) .. هذا جيش كامل بكامل عتاده وخيوله .. وعملية الانتقال معقدة جدًا من الناحية اللوجيستية .. لهذا لم يجد (هانيبال) أمامه إلا أن يأمر بثقب أذنى الرجل ثم يأمر الجيش بالبقاء حيث هو ..

قال له أحد القواد فى ارتباك :

- « حاشا لله أن أتدخل ولكن ألا ترى أن المكان يبدو كـ ... »

- « يبدو ككمين .. نعم .. أعرف هذا .. لكننا مرغمون على أن نقضى اليوم هنا .. »

قالها (هانيبال) وهو ينفخ فى عصبية ..

كان يعرف أن لعاب الرومان سيسيل لو عرفوا بهذا ..

* * *

- « (منيوسياس) ! حاول السيطرة على لعابك قليلاً ! »

كانت هذه من (فابيوس) الذى رأى أن قائده يسيل لعابه إلى حد أنه أغرق الخرائط وجعل الحياة مستحيلة ..

قال القائد وهو يجفف لعابه فى كمه :

- « معذرة أيها المستشار .. سليرب .. سليرب ! لكن لم أر جيش (هانيبال) فى ورطة أكثر غباء من هذه من قبل سليرب .. سليرب ! »

قال (فابيوس) وهو يراجع الخرائط المبتلة :

- « الحق أنها لفرصة سانحة .. هذا يدفعنى دفعًا إلى تجاوز سياسة ضبط النفس المعروفة .. إننا سنهاجمهم .. سنهاجمهم بقوة وشراسة .. سيكون علينا أن نغلق عليهم ممرين من ممرات هذا الوادى .. هكذا يضطرون إلى استعمال ممر ثالث ونصطدم بهم .. »

وأطبق بقبضته فى حماسة :

- « حركة تطويق .. و .. هوب ! وداعًا أيها الإفريقى ! سيطر على لعابك يا (منيوسياس !) »

ولم يكذب الرجل خبرًا .. وكذا لم يكذب (فابيوس) ..

سرعان ما تحرك الرومان المتعطشون للدماء نحو الوادى .. وتمت عملية الحصار بدقة بالغة ..

فى هذا المساء سمعت (عبير) ضوضاء عالية من المعسكر ..

الغريب فى هذه الضوضاء أنها كانت غير آدمية على الإطلاق .. إنها أصوات بهائم فماذا يحدث ؟

خرجت من خيمتها وحاولت ألا تتعثر بحبل الفيل النائم جوار الخيمة .. وعلى المدى رأت أغرب مشهد يمكن أن تراه ..

كان هناك نحو ألف من الثيران والماشية .. هذا ليس غريبًا لأن هناك قطعانًا هائلة تتبع الجيش لتغذيته .. لكن الغريب فعلاً كان أن الجنود يلفون حول قرون الماشية قطعًا من الخشب الجاف والصنوبر ..

أما الأغرب فكان أنهم يشعلونها ..

يدورون بينها بالمشاعل ، ويلامسون القرون جميعًا ..

وبدأت النار تضطرم .. فتعالى خوار الثيران .. وانتابها هياج يمكن تبريره ..

هل جن الجميع فجأة ؟

* * *

9 ـ الرومان ليس بينهم (جسكو) ..

أما الآن فقد تحول المشهد إلى أسوأ فوضى يمكن تخيلها ..

الماشية ثائرة ، والجند المحيطون بها يصرخون ويضربونها ..

ثم انطلق الركب يجرى ..

فى أى كابوس يمكن أن ترى مشهدًا كهذا ؟ الليل .. القطعان تركض والنار تشتعل من قرونها فتبدو كأنها وحوش أسطورية من الأساطير الإغريقية ..

الدخان يتصاعد والوادى كله يضاء بالنار ..

خوار الماشية .. صراخ الجنود وسبابهم ..

فى أى كابوس يمكن أن تهدر الأرض تحت حوافر الثيران .. وتهتز الجبال من صراخ الرجال .. ويتصاعد الدخان أكثر فأكثر ..

قل أى شىء عن (هانيبال) لكن لا تقل إن الحياة معه مملة من فضلك ..

وتقف (عبير) المذهولة ترمق القطعان المشتعلة الثائرة يقودها الرجال نحو الممر .. الممر الذى يتوقع الرومان أن يحاول القرطاجيون الهروب منه ..

وهنا بدأت تفهم ...

بالنسبة لها كان المشهد أشبه بجيش القرطاجيين كله يتجه إلى الممر ..

بالنسبة لمن يراقب من الجبال لابد أن المشهد كان أكثر وضوحًا أو خداعًا ..

وصاح القواد الرومان فى جندهم أن الحين قد حان ..

كل هذه المشاعل والأضواء والصرخات لا تصدر إلا عن جيش ..

وسرعان ما انحدرت قوات (فابيوس) كلها نحو الممر لتتصدى لجيش (هانيبال) العظيم ..

فى هذه اللحظة برز (هانيبال) فى معسكره .. كان الجو قد أظلم من جديد وانبلج الدخان كاشفًا عن العملاق المخيف وهو يزأر فى رجاله :

ـ « هلموا ! لقد ترك الرومان الممرين اللذين كانوا يحاصرونهما ! »

وعلى الفور بدأت القوات تصحو .. وتحرك الجمع المخيف نحو الجبال .. نحو القمة التى تركها الرومان وكانوا يسيطرون عليها من دقائق ..

وهتف (بونابرت) بينما العبيد يساعدون (عبير) على ركوب الفيل :

ـ « رررررررائع ذكرينى أن أستعمل هذه الحيلة فى حرب ما .. »

قالت فى ملل بينما الفيل يتأرجح وقد نخسه النخاسون :

ـ « لن تجد كل هذا العدد من الثيران .. »

الآن كان جيش (هانيبال) يخرج من المأزق المخيف الذى أعده له (فابيوس) الصبور ..

وراح الرومان يقتلون خيولهم قتلاً للحاق بهذا الجيش الوهمى الذى رأوه يقذف النار والضوضاء، لكنهم ـ بعد مطاردة مرعبة ـ اكتشفوا أنهم يطاردون مجموعة من الثيران ذات القرون المشتعلة .. القرون التى بدأت تنطفئ الآن ..

ـ « سيدى .. ليس هذا جيش (قرطاجة) .. إنه قطيع من الثيران ! »

نظر (فابيوس) إلى الوادى .. فاستطاع أن يرى جيش (هانيبال) الحقيقى يصعد الجبل خارجًا من حصاره .. فات أوان تصحيح الخطأ .. ابتسم ابتسامة صفراء يعرف كل من رآها أنها فقط تدارى الشعور بالحرج والخيبة ..

قال بصوت مبحوح وهو يفكر فيما ينتظره فى مجلس الشيوخ فى روما :

ـ « الأيام بيننا أيها الإفريقى .. »

* * *

عام 216 قبل الميلاد ، وفى الثالث من أغسطس ؛ وقعت موقعة (كاناى) ..

ساعة الشروق ظهر (هانيبال) على جواده فوق تل يطل على السهل ..

كان المشهد مهيبًا بينما الرياح العاصفة الساخنة تطير عباءته فى الهواء ، لكنه لايهتز .. حتى كأنه بشكل ما أتى من ذلك العالم الذى تأتى منه الشموس وإليه تأوى .. أتى من حيث تأتى العواصف والأعاصير والغيوم .. وهو إلى هذا العالم ينتمى ..

كان يدرس ساحة المعركة فى صبر .. الآن يستطيع أن يرى - بعين خبيرة - تفاصيل الجيش الرومانى وتوزيع قواته .. إنه يفهم الرومان ويعرفهم كظهر يده .. وكانت عينه الخبيرة تلتقط انعكاسًا لأشعة الشمس فيعرف على الفور أن هؤلاء مجموعة من الفرسان ..

اقترب منه مجموعة من قواده ونظروا إلى المشهد الرهيب فى الوادى .. العملاق الرومانى الذى يتمطى فى الفجر استعدادًا لتمزيق أعدائه ..

قال أحدهم وكان يدعى (جسكو) ، وهو - بالمناسبة - أبله نوعًا :

- « منظر مريع .. كل هؤلاء الرجال !! »

قال (هانيبال) :

- « هناك ما هو أغرب .. هل تعرفونه ؟ »

تبادلوا النظر لايدرون مايقولون فأضاف :

- « كل هذا الجيش الرومانى ليس فيه واحد يدعى (جيسكو) ! »

كانت واحدة من دعاباته الشهيرة .. فقد اشتهر بأن له مزاجًا لا تعرف أبدًا إن كان مزاحًا أم لا .. لكن المقولة انتشرت فى الجيش القرطاجى حتى صارت من المأثورات :

- « الرومان ليس عندهم (جيسكو) .. »

يعرف الرومان جيدًا دعابات (هانيبال) الثقيلة .. فذات مرة تلقوا رسالة من وكيل القنصل ومختومة

بخاتمه ، فكادوا ينفذون الأمر لولا أن تذكروا أن وكيل القنصل قتله القرطاجيون ، وبالتالى فلابد أن خاتمه مع (هانيبال) ..

كانت النسبة ثلاثة إلى واحد لصالح الرومان .. وكل شىء يدل على مذبحة قادمة .

لن أتحدث عن التعقيدات الاستراتيجية التى لاتهم إلا الإخوة (ليدل هارت) و (كلاوزفيتز) و (بوفر) وغيرهم من أساتذة الاستراتيجية .. فقط أقول إن توزيع قوات (هانيبال) كان فريدًا ، واحتفظ بحرية الحركة للفرسان الغاليين والأفارقة وهم الأسرع والأكثر صلابة ..

والأهم أنه احتفظ للمربعات الإفريقية بالأماكن المرتفعة من الأرض بحيث صار بوسع هذه القوات أن تضرب من تحتها فى حرية تامة ..

كان (هانيبال) دائمًا ملك الحرب ، فقط حين يتاح له اختيار الأرض بشروطه الخاصة .. وقد كان هنا يلعب على أرض اختارها بعناية ..

ـ « استراحة ! مياه !! »

وهكذا توقف القتال .. كانت هذه ـ كما يبدو ـ من عادات الحرب فى هذا الزمن .. لقد توقف كل واحد عند النقطة التى بلغها .. الذى يجثم فوق صدر خصمه متأهبًا لذبحه ، والذى يثب من فوق حصانه على أعدائه ، والذى يوشك على تلقى الطعنة فى صدره .. كل هؤلاء توقفوا كأنما هو فيلم سينمائى فى وضع تجميد الصورة Freeeze - Frame بينما دار السقاة على الجنود جميعًا بالماء .. إن الحرب فى أغسطس تسبب الظمأ بالتأكيد ، ونحن مازلنا فى منتصف النهار . ترى من سيبقى حيًّا حتى يشهد الغروب ؟ مازال اليوم طويلاً وشاقًا ..

شرب الجميع .. وغسلوا وجوههم ..

ـ « التحـــاااااام ! »

هكذا عادت الأحداث تتدفق .. من كان على وشك أن يذبح تم ذبحه ، ومن كان يثب من على حصانه واصل وثبته ، ومن كانت الطعنة فى طريقها إلى صدره واصلت طريقها .. لايوجد غش هنا ..

عند الظهيرة كان الرومان فى وضع غاية فى السوء ، وقد قالوا البقية والهندى يحصدهم ، ولا بقية إلا السيف فانكشفوا ..

وكما تقضى العادة القرطاجية اللطيفة كان أكثر الرومان الآن بلا أوتار فى سيقانهم .. وصاروا مؤهلين للتسول فى شوارع (روما) لو ظلوا أحياء ..

هكذا عند الغروب كان (هانيبال) قد أباد الجيش الرومانى .. أباد جيشًا من خمسين ألفًا بينما فقد سبعة آلاف من جنوده !

يقول الخبراء إن (هانيبال) نجح فى اجتذاب الرومان إلى المواقع التى حددها لهم بالضبط ، كما يحدث فى مباريات الشطرنج الأستاذية ..

وفى روما وجدوا - لحسن الحظ - كبش فداء فى القائد الرومانى (ترنتيوس فارو) حتى إنهم أطلقوا عليه لقب (ابن القصاب) الذى لايصلح لقيادة الجيوش ..

ومن الجدير بالذكر أن طبقة الأشراف الرومان كادت تباد فى هذه الحرب ، حتى إن مجلس الشيوخ وجد نفسه مضطرًا إلى تعيين 177 نائبًا دون انتقاء بدلاً من الذين هلكوا ..

* * *

ويقال إن (هانيبال) كان الرجل الوحيد فى التاريخ الذى التزم بقسمه بهذا الشكل الحرفى ..

* * *

وفى روما انتشرت عبارة (هانيبال على الأبواب) ، والحقيقة أن الأمهات يخفن أطفالهن حتى اليوم بهذه العبارة فى كثير من الدول الأوروبية .. ومن فوق صخرة (تاربى) هوى مزيد من الأجساد .. إن هذه الصخرة المباركة كانت مخصصة لإلقاء الذين يرفضون التجنيد ، وقد بلغ عددهم فى هذه الفترة ما جعل ارتفاع الهاوية مترين لا أكثر .. إن كومة الأجساد تحتها كانت تتعالى بسرعة لاتصدق ..

وعلى سبيل إرضاء (زيوس) بحث الرومان عن أى خاطئ فى المدينة .. يبدو أن الطهر كان شديدًا لدى هؤلاء القوم لأنهم لم يجدوا خاطئًا واحدًا إلا أرملة بائسة دفنوها حية ..

وراح القواد القرطاجيون يصرخون فى (هانيبال) :

- «هلم ازحف على روما .. إنها النهاية !»

لكنه فضل الانتظار فى صبر غريب .. مما أثار حفيظة القوم ..

وقال له أحد قواده فى غيظ :

- «أنت تعرف كيف تحقق النصر لكنك لاتعرف كيف تفيد منه !!»

لكن (هانيبال) كان يعرف أكثر ..

كان يعرف أن جيشه لايجيد فن الحصار .. وكان يعرف أنه لايملك معدات الحصار .. لابد من أن ترسل له (قرطاجة) بعضها ..

لكن ما لاحظته (عبير) هو أن مثله العليا بدأت تهتز فى تلك الفترة ..

لقد بدأ يقتل الأسرى .. وسمح لرجاله بقطع أيدى الموتى لانتزاع الحلى .. كما أنه لم يسمح بدفن القواد الرومان كما ينبغى .. صحيح أنه لم يأمر بالتمثيل بهم كما كانت العادة المحترمة فى ذلك الزمن ، لكنه عودها على مستوى رفيع جدًا من الأخلاق إلى حد أنها لم تعد تعتبره من غزاة هذا العصر ..

أتراه الغرور ؟ الشعور بأنه لايقهر ؟

أتراه الكره الشديد لروما الذى يتزايد كلما دنا من قلبها المتأجج ؟

أتراه الإرهاق العصبى بعد حروب طالت .. مما جعله عاجزًا عن لعب دور الجنتلمان أكثر من هذا ؟

أتراه كل هذا معًا ؟

المهم أن (عبير) بدأت تدرك الحقيقة التى تنمو فى نفسها يومًا بعد يوم ..

(هانيبال) يجب أن يموت ..

* * *

10 ـ لا تفسد دوائرى ..

وفى المساء جاء إلى خيمتها ..

كان منهكًا وكانت هى متوترة بحق ..

هذه هى المرة الثانية فى (فانتازيا) التى تقتل فيها ـ أو تحاول ـ فاتحًا تاريخيًا بالسم .. المرة الأولى مع مستشار الرايخ (هتلر) والآن مع (هانيبال) ..

* * *

ـ « الأمر سهل .. كل امرأة قاتلة بالسم بالفطرة .. بالسليقة .. »

* * *

ـ « فقط المرأة تعرف كيف تناولك كأس المنون لتجرعها راضيًا .. ثم ترقص بعد هذا حول جثتك .. »

* * *

وقال لها (هانيبال) وهو يريح رأسه إلى جدار الخيمة :

ـ « فقط مكانك يا (برسيفون) هو الموضع الوحيد الذى يستطيع فيه قائد متعب أن يريح رأسه .. كل شىء فيه يمت لك بصلة .. بعيدًا عن الدماء وأنين الجرحى والنقع .. »

كانت تنتظر اللحظة المناسبة .. وكانت تعرف أنها آتية لامحالة ..

ـ « صبى لنا بعض الشراب .. »

مدت يدها إلى الإناء القرطاجى المعدنى ، وصبت له كوبًا مترعًا من الشراب الممزوج بالسم الذى أعدته من قبل .. كان يعرف أنها لاتشرب أبدًا لهذا لم يطلب منها أن تشاركه ..

كانت يدها ترتجف لكنها كانت تجلس عند عينه المعطوبة فلم يلحظ شيئًا ..

قال لها وهو يفرك عينيه :

- « لقد طالت الحرب .. طالت .. هم يطالبوننى بأن أتقدم إلى (روما) لكنى لن أخضع لهؤلاء القواد عديمى الخبرة .. ليست (روما) هى تلك المجموعة من الجنرالات الحمقى الذين قضيت عليهم أو على سمعتهم .. إن (روما) تستطيع الصمود .. ولسوف تصمد .. بينما أنا مقطوع بالكامل عن قواعدى فى (قرطاجة) و(إسبانيا) .. لابد من وقت لحشد قواتى .. لابد من استمالة المزيد من الغاليين .. لابد ... »

ثم مد يده وخلع حذاءه ...

كان تأثير هذا بالنسبة لمحارب قضى أسبوعًا بحذائه يشبه ما يحدث عند فتح مقبرة .. لكنه لم يلحظ شيئًا .. وراح يعبث بأصابع قدميه فى استجمام ..

مدت له يدها بالكوب وتمنت أن يكون الرومان بارعين فى علم السموم .. طبعًا عرفت أوروبا آل (بورجيا) فيما بعد حين كانت قنينة السم توضع على المائدة مثلها مثل الملاحة ..

قال (هانيبال) وهو يرتكز على كوعه وقد برزت عضلات ذراعه العملاقة :

- « لن يصدق أحد فى الكون أن (هانيبال) الرهيب لم يرغم أسيرته على شىء .. لكنى قلت لك مرارًا : لا أريد منك إلا ما تقبلين منحه .. لن أرغمك .. إننى مستعد لمواجهة الجيوش والعمالقة وسادة الحرب ، لكنى غير مستعد لإرهاب شخص ضعيف لا يملك من أمره شيئًا .. لست من هؤلاء القادة العظماء الذين يبللون سراويلهم فى ميدان الحرب ، ثم يعودون لنسائهم ليوسعوهن ضربًا .. (هانيبال) العظيم يعرف كيف يكون جبارًا ظالمًا مع الجبابرة ، وضعيفًا واهيًا مع الضعفاء .. »

ثم رفع الكوب إلى شفتيه ..

قالت له قبل أن يشرب :

- « (هانيبال) .. »

- « هم م م م م م م ؟ »

- « هذا الشراب مسموم ! »

نظر لها واتسعت عيناه .. ثم طوح الكوب إلى طرف الخيمة وعاد يسألها :

ـ « من قال هذا ؟ »

ـ « أنا قلت .. والسبب هو أننى من وضع فيه السم .. »

ـ « ولماذا ؟ »

ـ « لأننى رومانية وأنت عدو قومى .. »

ـ « ولماذا تكلمت الآن ؟ »

ـ « لأننى شعرت بالخسة .. لم أحتمل قتل من يعاملنى بهذا النبل .. »

مد يده فاعتصر كتفيها فى غلظة وراح يهزها حتى كادت روحها تخرج من فمها :

ـ « لماذا يا حمقاء .. لماذا ؟ لماذا فعلت ذلك ؟ ولماذا اعترفت به ؟ هل تعرفين ما على أن أفعله الآن ؟ »

أخيرًا كف عن الهز وعاد قلبها ينبض فقالت باكية :

ـ « أعرف .. ستقطع رقبتى الآن .. لا مفر من ذلك .. »

ـ « ليس هذا الحل محببًا ولا يناسب من أرادت أن تسمم (هانيبال) .. لابد من تقطيع أطرافك وإلقائها للكلاب وأنت حية تشاهدين المنظر ! هذا أقل عقاب فى ذهنى الآن .. »

ارتجفت للفكرة .. كانت تتوقع إعدامًا سريعًا مريحًا ، لكن هؤلاء القوم واسعو الخيال ..

ـ « أين زجاجة السم ؟ »

مدت يدها إلى صدرها وأخرجت القنينة .. فأمسكها فى يده كأنما يفكر .. نظر لها طويلاً فى مزيج من الاشمئزاز وخيبة الأمل ، ثم نهض ...

بالطبع لم تنم ليلتها ..

ظلت حتى الفجر تنتظر قدوم الرجال ومعهم أدوات التمزيق .. لكن أحدًا لم يأت ..

وقدرت أنه رتب لها انتقامًا أفظع مما وعد به ..

* * *

نحن الآن عند ميناء (سيراكوزة) ..

لقد مرت أعوام طويلة و (هانيبال) يكتفى بالمناوشة والرومان يحاولون عبثًا و (قرطاجة) لاترد على طلبات الرجل الملحة للمزيد من العتاد والجنود ..

الزمن ليل .. ولمن نسوا ما هى (سيراكوزة) نذكرهم أنها قلب (صقلية) فى البحر المتوسط ..

تتقدم السفن الرومانية فى بطء شديد وقد التحمت كل سفينتين بالحبال فى منظر غريب .. الغرض من هذا تحويل السفن إلى أدوات اقتحام منيعة .. فى مقدمة كل سفينة مزدوجة دروع ثقيلة من الحديد .. وسلالم عملاقة معدة لتلتصق بأسوار المدينة عند الالتحام ..

على ظهر السفن أعداد غفيرة من مشاة الرومان الأشداء الذين ينتظرون لحظة الالتحام ليتسلقوا السلالم كالفئران إلى داخل المدينة العنيدة ..



مدت يدها إلى صدرها وأخرجت القنينة .. فأمسكها فى يده كأنما يفكر ..

ستون سفينة .. أتمت الاختراق تحت جنح الليل ..

وكانت بين السفن مراكب مستعدة بالمقاليع وآلات الحرب لتغطية ظهر الجنود وهم يصعدون السلالم ..

وكانت هذه هى الضربة الأولى القاسية الموجهة إلى أسنان (هانيبال) الصلبة .. إن (سيراكوزة) الحليفة كانت من أهم نقاط ارتكازه فى البحر المتوسط ..

لم يكن ما يقلق الرومان هو بسالة أهل (سيراكوزة) ولا شجاعتهم ، ولكن كانت تقلقهم عبقرية رجل واحد .. عجوز غريب الأطوار يهوى الجرى عاريًا فى الشارع صائحًا : أوريكا (وجدتها !) ..

نعم .. إنه (أرشميدس) .. فى هذا المكان والزمان بالذات .. (أرشميدس) العبقرى الذى لابد أنك قضيت أسوأ أوقات حياتك وأنت تدرس قوانين الطفو وأحجام السوائل التى اكتشفها فى الحمام .. كلنا يعرف قصة التاج الذى أراد الملك أن يعرف إن كان مزيفًا أم لا .. وحين دخل (أرشميدس) الحمام رأى الماء الذى أزاحه

حجم جسده ، من ثم وجد الحل للمعضلة .. وغادر الحمام يجرى فى الشوارع صائحًا : وجدتها .. وجدتها ..

يحكى التاريخ عن هذا العبقرى الذى طور روافع بوسعها قلب السفن التى تحاصر (سيراكوزة) وعن المرايا المقعرة العملاقة التى صنعها ، والتى استطاعت تركيز أشعة الشمس على الأساطيل المعادية وهى فى عرض البحر فتحترق ..

هكذا يمكننا فهم لماذا كان الرومان يرتجفون هلعًا مما دبره لهم هذا العبقرى المزعج ..

وبالفعل ..

لقد انفتحت الأسوار بطريقة ميكانيكية ثم خرجت منها رماح طويلة اخترقت جسد الرومان فى كل مكان .. وتعالت الصرخات لتوقظ النيام ..

ثم ـ كأنما نحن فى إحدى قصص (ديزنى) المسلية ـ ظهرت أذرع تلسكوبية بالغة الطول تتحرك بسلاسل ..

اتجهت هذه الأذرع كأنما هى مخالب توشك على الانقضاض على السفن .. وهوب ! ألقت كل ذراع كتلة حديدية هائلة الحجم فوق كل سفينة ..

كل كتلة من هذه كانت تهوى على السفينة فتشطرها إلى نصفين ..

بعض الأذرع كان يمسك بالسفينة ويرفعها من مقدمتها ليقلبها فى البحر ..

بعض الأذرع كان يلقى فوق السفن كتلاً من القار المشتعل ..

الحقيقة أن العجوز (أرشميدس) استطاع وحده حماية (صقلية) .. وهذا نموذج جيد على العبقرية التكنولوجية التى توفر الجهد وحياة الجنود ..

وفى النهاية أدرك الرومان أن الهجوم من هنا مستحيل ..

أدركوها وهم لا يبصرون شيئًا إلا المخالب العملاقة

التى تمزق سفنهم ، والظلام الدامس ، ووهج النيران .. لقد اختاروا الظلام للمفاجأة ، لكن اختراعات (أرشميدس) كانت تعمل بشكل أفضل فى الظلام ..

ـ « هاجموا جزءًا آخر من السواحل !! »

ودام الحصار .. ثم ـ كالعادة ـ كانت الخيانة هى الطريق الوحيد للاختراق ، وكم من شعب باسل لا يفله شىء ، لم يقض عليه إلا خيانة الخائنين ..

هكذا تدفقت القوة الرومانية الغاضبة إلى شوارع المدينة ..

هنا يبدأ الفصل التقليدى من الذبح والنهب والقتل والاغتصاب وبقر بطون الحوامل وكل الفظائع التى تكتب كمجموعة واحدة فى أى موقف مماثل .. كررت من قبل عن اقتحام (طروادة) ما قاله المؤرخ العظيم (كرستوفر هارولد) عن أن سلوك الجيوش المقتحمة للمدن لا يحتاج إلى مؤرخ بل يحتاج إلى محلل نفسى ..

وكانت مواجهة الرومان مع الإغريق هى اللقاء بين القوة العسكرية العاتية والرقى الحضارى الثقافى .. بين البلطجى والفيلسوف .. بين راعى البقر والموسيقار ..

أما المشهد الذى لايمكن وصفه والذى أحكيه دون أى تدخل منى ، فهو مشهد الجنود الرومان حين دخلوا إلى بيت (أرشميدس) ..

كان العالم العظيم الذى بلغ الخامسة والسبعين من عمره ، جالسًا على الأرض يحل مسألة هندسية عويصة ، وكان منهمكًا بها إلى حد أنه لم يشعر بأن المدينة تم اقتحامها .. لم يشعر بأن بيته اقتحم .. لم يشعر بأن خمسة جنود رومان أشداء تكسوهم الدروع يقفون فوق رأسه الآن .. وهم يلهثون كالخنازير ..

فقط دخل صندل أحد الجنود الرومان الكادر ليدوس على دائرة بالطبشور رسمها العالم على الأرض ..

قال (أرشميدس) دون أن يرفع رأسه :

ـ « من فضلك .. لاتفسد دوائرى .. »

هنا هوى الجندى على العنق الثمين ليطيره بسيف لايعرف الفارق بين عنق وآخر ..

وسقط العالم على الأرض بينما سالت الدماء لتغرق دوائره .. وبصرف النظر عن كونك تعتقد أنه استحق هذا لأنه عذبك فى المدرسة بما يكفى ، فإن موته كان خسارة عظمى للعلم والحضارة ..

* * *

11ـ سكيبيو ..

الآن تعال أقدم لك المستشار (بوبليوس كورنيليوس سكيبيو) ..

إنه قائد بارع شديد المراس .. وفى عينيه ترى عزيمة لايمكن قهرها .. هناك أكثر من (سكيبيو) فى هذه الحرب فلاتختلطن عليك الأسماء .. يبدو أن أسرة (سكيبيو) كانت تحترف الحرب ضد (هانيبال) وقد فقد هذا الـ (سكيبيو) الذى نتحدث عنه الآن أباه وعمه فى إسبانيا ..

الحقيقة أن التاريخ سيذكر فيما بعد أن هذا الرجل هو أفضل قائد عسكرى قبل عصر (يوليوس قيصر) ..

كانت لدى هذا المحارب المتحمس نظرية ثورية هى:

ـ « عدونا ليس (هانيبال) .. بل (قرطاجة) !! »

فشرحوا له فى صبر الحقيقة البسيطة :

ـ « (هانيبال) الآن على مشارف (روما)، بينما (قرطاجة) بعيدة جدًا فى شمال إفريقيا .. »

فقال فى عناد :

ـ « لو أننا دمرنا قرطاجة .. فماذا يبقى لـ (هانيبال) ؟ »

كانت هذه فلسفته العسكرية .. فلسفة تجفيف المنبع .. لاتمنع تدفق النهر ولكن ضع صخرة تمنع تدفق الماء فى منبعه ..

قال له المستشار (فابيوس ماكسيموس فيروكوزوس كنكاتور) :

ـ « أنت رجل شجاع .. لكنى أوصيك بالهدوء والتعقل .. إن الزمن معنا لاضدنا .. »

لكن الرجل كان متعقلاً بالفعل . وأكثر من هذا كان يعرف ما يفعله ..

لاحظ عدة أشياء مهمة :

أولاً : أن جل جيش (هانيبال) لم يعد من القرطاجيين .. إنه يعتمد الآن بالكامل على القبائل الغالية والإيطالية عدو (روما) .. فلو أمكن أن ... لاستطعنا أن ...

ثانيًا : يجب أن يكسب ميل هذه القبائل وثقتها بدلاً من الطريقة الرومانية المتعالية المؤذية ..

ثالثًا : أن السلطة فى (روما) موزعة بين أكثر من قنصل وأكثر من قائد .. هذه السلطة يجب أن توضع فى يد رجل واحد يعرف ما يفعله ..

* * *

مرت أربع سنوات ..

وقد شهدت حياة (هانيبال) الخاصة مأساة هى هزيمة أخيه (هسدروبال) فى موقعة (ميتوروس) .. لقد قتل الآخر على يدى القائد الرومانى (جايوس

كلاوديوس نيرو) .. إنها قصة التفاف حول القوات وهجوم من الخلف فى لحظة كادت فيها القوات القرطاجية أن تحرز النصر كالعادة ..

كلف هذا النصر الرومان الكثير لكن قوات (هسدروبال) أبيدت بالكامل ..

وحين عاد (نيرو) إلى معسكره كان يحمل رأسًا حفظه فى الكحول .. صاح فى رجاله :

ـ « أريد أن تأخذوا هذا الرأس وتلقوه على معسكر (هانيبال) .. »

وهكذا انطلق مجموعة من الفرسان نحو معسكر (هانيبال) .. وكان هذا واقفًا مع (عبير) يحدثها عن خططه المستقبلية .. الحقيقة أنها لم تفهم بعد إن كان سامحها أم هو يرتب لها عقابًا جهنميًا ، لكنها شعرت كأن قصة السم محيت بالكامل من ذاكرته ، وهو ما يحدث مع فقدان الذاكرة الهستيرى حين تذكر كل شىء ما عدا الواقعة التى تريد نسيانها بالذات .. لكن من الصعب أن نقول إن (هانيبال) كان هستيريًا ..

هنا تصايح الفرسان :

ـ « رومان قادمون .. هل نفتك بهم يا بن (برقة) ؟ »

صعد إلى مرتفع ووضع يده على عينه ليتقى الشمس .. لم يكن منظر الرومان مهاجمًا بل هم أقرب إلى رسل يحملون رسالة ..

قال لرجاله فى حزم :

ـ « لا .. انتظروا لحظة .. »

ودنا الرومان على خيولهم من أسوار المعسكر فطوحوا بكيس صغير يحملونه وولوا الأدبار وهم لا يصدقون أنهم ما زالوا أحياء ..

تذكرت (عبير) جارتها التى كانت تتخلص من بقايا ذبح الدجاج بهذه الطريقة ، إذ ترسل ابنها ليطوحها عند مدخل بيت (عبير) ويفر .. هل الرومان يهتمون بذبح الدجاج إلى هذا الحد ؟

لكن الكيس طار فى الهواء ليستقر عند قدمى الرجل ..

مد يده وفتحه فى حذر .. وفى اللحظة التالية كان وجه أخيه الميت يحملق فيه ..

للحظة أطلق شهقة قصيرة من أعماق روحه ، ثم تماسك على الفور .. قال بصوت حديدى :

ـ « تأكدوا من أن يدفن بالاحترام اللائق .. »

بحثت (عبير) فى وجهه عن ألم أو تأثر أو أى شىء فلم تجد .. هذا الرجل مصنوع من فولاذ ..

واصل إصدار تعليماته لمدة نصف ساعة ثم ابتعد .. اتجهت (عبير) إلى خيمته لكنها توقفت عند باب الخيمة .. لقد كان يبكى بالداخل فى حرقة كأنه طفل ضاعت أمه فى الزحام ..

شعر بوجودها فانتصب فى صلابة ..

قال بصوت لا أثر للدمع فيه :

ـ « سنعود إلى (قرطاجة) .. إننى أعرف أن الرومان ، سيحاولون مهاجمتها لقطع خطوط اتصالى .. »

وفى كلماته شعرت (عبير) بشىء كالنذير .. هذا شىء يشبه عودة الحيتان إلى الشواطئ التى ولدت عندها كى تموت إذا شعرت بدنو ساعتها .. لماذا يحن (هانيبال) إلى (قرطاجة) الآن بعد كل هذه الأعوام ؟ بعد أربعة وثلاثين عامًا !!

وفى تلك الليلة عمت (روما) الأفراح التى نسيتها طويلا ..

* * *

الآن بدأت الأحداث تدور بسرعة ..

كتاب (هانيبال) يقترب من نهايته كأنما التاريخ قد مل هذه القصة ويريد الانتهاء منها ليبدأ غيرها ..

لقد أبحر (سكيبيو) إلى إفريقيا عازمًا على تحقيق نظريته السابقة بضرورة غزو (قرطاجة) .. (قرطاجة) هى الخطر لا (هانيبال) .. اتجه إلى هناك على رأس أربعمائة مركب فيها نحو ثلاثين ألف رجل ..

وتوسل إلى (نبيتون) قائلاً :

- « هب لى القوة كى أقضى على (قرطاجة) .. »

ثم ذبح قربانًا بنفسه وألقى بأمعائه إلى البحر ليلتهمه الأخ (نبيتون) ..

ثم صاح بأعلى صوت ليسمعه الناس على الشط :

- « إلى (سرت) !! »

فلما ابتعدت السفن عن مسمع الناس أصدر الأمر الجديد المعدل :

- « إلى (قرطاجة) !! »

وهكذا نصل إلى وضع فريد .. القرطاجى فى إيطاليا المعادية والرومانى فى شمال إفريقيا المعادى .. هكذا مر شتاء عام 204 قبل الميلاد ..

على كل حال يجب أن نوجز القول فنؤكد أن (سكيبيو) استطاع غزو البلاد .. وكانت هناك موقعة كبرى فى (كامبى ماجنى) وهى ما يطلق عليه التونسيون اليوم اسم (سوق الخميس) ..

ولحق به (هانيبال) .. كيف ؟ الله تعالى أعلم .. فالتاريخ لا يفسر كيف كأنما الرقابة الرومانية حذفت هذه اللقطة من الفيلم ..

المهم أن (هانيبال) وصل بكامل عتاده وجيشه و(عبير) طبعًا إلى شمال إفريقيا ليدافع عن (قرطاجة) .. وبمعجزة مامر عبر البحر المتوسط الذى كان كل سنتيمتر منه يزدحم بسفن الرومان بعد سقوط (صقلية) ..

هنا نجد الجزء الساخر من الموضوع ..

قالت (عبير) لـ (هانيبال) ذات مرة :

ـ « بلدك جميل .. لكن أين تتوقع أن تقع المواجهة ؟ »

كان هواء البحر المتوسط الجميل ينعش صدرها ، بينما ترى غابات من أشجار الزيتون وجبالاً اكتست برداء أخضر ناصع .. لم يبد لها هذا بلد حرب ..

نظر لها (هانيبال) للحظة .. كان وجهه قد تجعد وغزته علامات الهم .. هو الذى ظل فى حرب ضروس طيلة حياته .. وابتسم وقال :

ـ « صدقى أو لاتصدقى .. (هانيبال) لايعرف شيئًا عن هذا البلد ! »

صفرت بشفتيها وهتفت :

ـ « يا نهار إسود !! »

ـ « هذا حق .. هذا بلدى ومسقط رأسى لكنى أجهل كل شىء عنه لأنى تركته وأنا طفل ، بينما الرومان يعرفون كل شبر فيه ! هذا هو مايثير قلقى .. للمرة الأولى أقاتل فى أرض لا أعرفها .. »

وهكذا جاء اليوم الذى استقبل فيه (سكيبيو) مندوبًا قرطاجيًا يقول له إن (هانيبال) يدعوه إلى (طاولة المفاوضات) ..

وافق (سكيبيو) وتم ترتيب اللقاء ..

* * *

الآن يلتقى البطلان ..

كان (هانيبال) قد اصطحب معه (عبير) كمترجمة للاتينية برغم أنه يجيدها .. والسبب هو أن المترجم يعطى فرصة للتفكير والتراجع .. وبالمثل أحضر (سكيبيو) معه مترجمًا حاصلاً على الدكتوراه فى القرطاجية من (روما) ..

أخيرًا يقترب البطلان وللمرة الأولى يرى (سكيبيو) العملاق الذى ظل كابوس (روما) كل هذه السنين .. لقد رأى ضحاياه .. رأى خططه .. رأى جيوشه لكنه لم يره قط ..

بالنسبة لـ (عبير) لم يبد (سكيبيو) موحيًا بالبطولة .. له ملامح دقيقة شبه نسائية ورأس أصلع ونظرة ناعسة ومملة .. وكان يضع على صدره شعار روما .. ويقطب جبينه أكثر من اللازم ..

أما (هانيبال) فكان كما هى العادة شامخًا لكنه لم ينزع الخوذة، لهذا ظل وجهه فى الظل مستغلقًا على الفهم ..

قال (هانيبال) بصوته الواثق :

ـ « لقد حالفك الحظ أيها المستشار .. لكن هل تفهم حقيقة أنك لو هزمت هنا لضاعت (روما) تمامًا ؟ إن فى الصلح منفعة لكلينا .. »

ثم أضاف لخصمه الصموت :

ـ « كل جزر البحر بين إيطاليا وإفريقيا .. هذا ما نريده .. مقابل هذا تتخلى (قرطاجة) عن إسبانيا .. »

قال (سكيبيو) :

ـ « للأسف .. إن لدى مجلس الشيوخ وهو لن يقبل أية سيطرة غير رومانية على الجزر .. »

ـ « هذا مرفوض أيها المستشار .. »

وحانت نظرة من (سكيبيو) إلى (عبير) وابتسم :

ـ « أنت الأسيرة الرومانية التى ظلت فى معسكر (هانيبال) كل هذه السنين ؟ إن الرجل يجيد الاختيار .. »

قال (هانيبال) فى لا مبالاة :

ـ « ولا يموت بالسم بسهولة كذلك .. »

عندها ساد الصمت ، ثم أدى (هانيبال) التحية العسكرية لخصمه وابتعدا ..

هكذا كان موعد موقعة (زاما) قد تحدد ..

وكان (سكيبيو) بارعًا واستطاع أن يمتص قوة (هانيبال) تمامًا .. وهكذا هزم القائد العظيم فى هذه الموقعة ، لكنه كان أذكى من أن يعيش فى الوهم .. لقد أعلن لرجاله :

ـ « نحن لم نخسر معركة .. لقد خسرنا الحرب كلها .. اقبلوا شروط الصلح المعروضة عليكم .. »

لأنه كان يفهم أن (قرطاجة) هى أمله الأخير ..

واستسلمت (قرطاجة) أخيرًا ..

ودفعت فدية الحرب ، وأسلمت قواتها المسلحة وعتادها لـ (روما) .. ومن يومها أطلق على (سكيبيو) اللقب الذى تعرفه أنت من كتب التاريخ الإفريقى ..

وفى العام 201 فر (هانيبال) إلى سوريا ليعيش فى ضيافة الملك (أنتيوخوس الثالث) .. بعد هذا اتهم بالتآمر ضد (روما) ففر إلى (بيثينيا) ..

* * *

فى تلك الليلة دخلت عليه (عبير) فوجدته جالسًا جوار نافذة تطل على الليل البهيم بالخارج .. شعر بوجودها فقال لها :

ـ « تعالى يا (برسيفون) .. »

جلست بقربه ولاحظت أنه شارد الذهن شأن من يستعيد شريط حياته من بدايتها .. قالت له :

ـ « فيم تفكر ؟ »

أخرج مرآة صغيرة ذات إطار فضى وناولها إياها وقال :

ـ « هلا تأملت وجهك فى هذه المرآة ؟ »

نظرت فى السطح اللجينى .. وبرغم الظلام فإن الشموع كانت كافية كى تعرف ما تراه .. عينان غائرتان وسط محجرين ازدحما بالتجاعيد وجبين مغضن وشعر نصفه ذهبى ونصفه أبيض ..

رفعت عينيها نحوه وهمست :

ـ « وماذا هنالك ؟ هذا وجهى .. »

ـ « لقد حلت بك لعنتى أنا الذى قضيت كل حياتى وسط غبار الحرب .. لقد قضيت أنت أيضًا زهرة عمرك وسط السيوف وصراخ الجرحى وثورة الفيلة .. تلاحظين أننى لم أقدم لك عرضى الرابع بالزواج .. وبهذا لم أمنحك اسمى ولم تنالى حريتك .. لقد كان هذا انتقامى ممن أرادت أن تدس لى السم .. وإنه لانتقام مريع .. مريع .. لو كنت أكثر رحمة لمزقت جسدك وألقيت به للكلاب .. لكنى انتزعت حياتك ببطء ببطء .. وها هى ذى قد انتهت وأنت لم تحققى شيئًا بكل ما كان لديك من جمال وشباب .. »

ارتجفت لأن الفكرة لم تخطر لها ببال قط وهمست :

ـ « هل تكرهنى إلى هذا الحد ؟ »

- « ربما أكثر .. والسبب هو أننى أحببتك أكثر من أى شىء فى الكون ، ولم أشعر لحظة بأنك تحبيننى برغم ما أظهرت نحوك من رعاية وكرم .. لهذا اخترت لك أقسى انتقام خطر لى .. والآن أنت حرة .. »

ثم مد يده إلى شىء كان على المنضدة جواره وفتحه .. عندها أدركت أنها قنينة السم إياها :

- « لا تفعل !! »

- « لِمَ لا ؟ إن الرومان يضيقون على الحياة وغدًا يأتون مطالبين بى .. هم مثلى فى القسوة لا يريدون لى أن أموت ، وإنما يريدون أن أكون رمزًا لعدو (روما) المهان الخائف المطارد .. لقد اخترت لنفسى مصيرًا كان يتراءى أمامى منذ أخذت منك تلك القنينة منذ أعوام طويلة .. »

ورفع القنينة لشفتيه فصرخت فى رعب :

- « بعد كل هذه الأعوام .. لابد أنه فسد !! إن تاريخ الصلاحية ... »

عاودته روح الدعابة السوداء فانفجر يضحك :

- « كيف يفسد السم ؟ هل تعنين أنه سيصير سامًا ؟ »

ثم أفرغ القنينة فى فمه دفعة واحدة ..

حقًا زادت الأعوام السم قوة لأن رأسه هوى على صدره على الفور ، وتصلبت نظرة الموت فى عينيه ..

- « هانيبااااااااال !! »

هنا شعرت باليد الواثقة توضع على كتفها ، وصوت المرشد يقول فى حزم :

- « لا جدوى .. لقد مات .. لا تحدثى ضوضاء حتى لا توقظيه ! »

- « ولكن ... »

- « هذه هى النهاية التى اختارها (هانيبال) لنفسه .. لم يتحمل أن يصير طريد (روما) بعد ما كان مطاردها .. وغدًا يحرق الرومان (قرطاجة) ويحرمون سكناها خمسة وعشرين عامًا .. لكن (هانيبال) حفر لنفسه موضعًا لا يزول من تاريخ البشرية .. »

ثم مد يده لها فنهضت متثاقلة ...

* * *

فى القصة القادمة تعيش (عبير) مجتمعًا غريبًا بعض الشىء .. العراب والمافيا و(إليوت نس) و(آل كابونى) والأسرة الغاضبة دومًا ..

★ ★ ★

تمت بحمد الله

المصادر :

□ هارولد لام : هانيبال . ترجمة رشدى السيسى . الألف كتاب . 421 . دار الفكر العربى 1962

□ شبكة الإنترنت .

□ Leonard Cottrel : Enemy Of Rome. *Pan Books Ltd* , London. 2 nd edition. 1964

روايات مصرية للجيب

فانتازيا

مغامرات ممتعة
من أرض الخيال

أيام مع هانيبال



د. أحمد خالد توفيق

هناك فى (تونس) ، فى هذا الزمن السحيق تدور المشاهد السريعة الأخيرة من الصراع الذى انتظر خمسة عشر عامًا ، بين (هانيبال) العظيم عدو روما ، والقائد الرومانى (سيبيو) الذى عرف فيما بعد باسم (سيبيو) الإفريقى ..

إنها موقعة (زاما) .. ليست أسطورة .. لكن الأحداث العظمى التى ستقع تبدو كأنها كذلك ..

مطابع سلاح التلميذ

طباعة ونشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن فى مصر ٢٥٠ قرشًا
ومايعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

القصة القادمة
عرض لا تستطيع رفضه